

حنّادٌ محمدٌ حنّادٌ



القطب
للنشر والتوزيع

تَخْرِجُ الْبَشَرَةَ

ظهرت الطبعة الأولى
من هذا الكتاب في ديسمبر ١٩٥٩
الطبعة الثالثة
١٤٢٥هـ - ٢٠٠٤م

جميع الحقوق محفوظة للناشر

دار المقطم للنشر والتوزيع

٥٠ شارع الشيخ ربحان - عابدين - القاهرة

تليفون: ٧٩٥٨٢١٥ - ٧٩٤٦١٠٩

فاكس: ٥٠٨٢٢٣٣

email: elmokatam@hotmail.com

عنايد محمد عناد

تخريج البشير

الوقف
للنشر والتوزيع

الإهداء

إلى الذين يحبون الجنس البشري
ويريدون له الحرية، والعدل، والسلام

موضوعات الكتاب

٧	* مقدمة
١٣	* قريننا هذه
٣٩	* من الحروب الصليبية إلى الحرب العالمية الثانية
٧١	* من الحلف المقدس إلى ميثاق الأطلسي
٩٥	* أرباب الأرض
١٢٥	* محنة الضمير السياسي
١٥٥	* والرماحَ مناجل

مقدمة

أجمل ساعات حياتنا .. تلك التي تغشانا فيها سَكينة
المحبين الودعاء ..
وأولاً ساعات تفكيرنا .. تلك التي نفكر فيها
تفكيراً موضوعياً .. نتفوق فيه على الهوى والغرض .
وخير ما نأخذ من الماضي - العبرة ..
وأوثق ما يربطنا بالمستقبل - الرجاء، والمثابرة .
وهذه الصفحات، ثمرة خواطر مُباركة .. أفاءت عليها
المحبة .. وتنحى عنها الغرض .. وتلقّت من الماضي دَرسه ..
وحَمَلها إلى المستقبل شوق حميم، ورجاء مُثابر ..
وكاتب هذا الكتاب يؤمن أن العالم قرئته ..

والبشرية أسرته.. ولقد هداه إيمانه هذا إلى إدراك أن على رأس واجبات الإنسان الذى أذن الله له أن يفكر، ويكتب - واجبًا جليلاً بقدر ما هو محتوم.. واجباً يدعوهُ إلى الاهتمام بمشاكل العالم، كما لو كانت مشاكله هو.. وإلى التفكير فيها، والتعبير عنها بنفس الحرارة والولاء اللذين يتناول بهما مشاكل وطنه، وذاته..

وحين هممت بكتابة هذه الصفحات، لم أسأل نفسي: إن كانت قد فرغت من مشاكلنا نحن، حتى تُولى وجهها شطر مشاكل العالم..؟

لم أسألها هذا السؤال؛ لأنها كانت قد ارتفعت، ورفعتني معها إلى المستوى الذى تُدرك عنده وحدة المشاكل..، والذى أبصرنا فيه حقيقة الوضع الإنسانى فى هذه الأرض.. وعرفنا المفهوم السوى لكلمة "نحن". فـ "نحن" هذه ليست فى التحليل النهائى لها سوى سكان هذا الكوكب جميعاً.

وأنت، وأنا - إنما نبحث مشاكلنا "نحن" حين نُدير

خواطرنا على المشكلة الإنسانية بأسرها..

* * *

إن الحرب العالمية الأولى، لم تُعلن من بلادنا.. ولم
تُعلنها نحن ولم يكن لنا في أسبابها دور.. ومع هذا؛
فقد كنا نُساق إليها كارهين.. !

والحرب العالمية الثانية، لم تُعلنها، ولم تُستشَر فيها..
ومع هذا؛ فقد تساقطت قنابلها فوق مدننا وقُرانا،
وسُخرت لها مطاراتنا، وموانينا، ومواصلاتنا، وخيرات
بلادنا.

ولقد قمنا بتأميم قناة لنا، وتقع في بلادنا، فإذا العالم
كله يشتعل، وكان القناة تخرق كل بيت فيه..!
وهكذا، فنحن لا نذهب بعيدا عن أنفسنا، حين
نقترب من العالم كله، ونعيش بوعينا بين مشاكله.

* * *

ولقد انتهيت في هذا الكتاب إلى أن مصادر التخلف
والتمزق في عالمنا هي:

- التجارة، التي تحولت إلى رأسمال يريد أن تكون له
الكبرياء في الأرض ..

- الأحلاف، التي تقوم على نُشْدان المغانم الظالمة
وتحشد القُوَى لحروب دائمة ..

- النظام الطبقي في الكيان الدولي، حيث ينقسم
العالم إلى "دول كبرى" لها كل شيء.. و"دول
صغرى" ليس لها من الأمر شيء..

- انحراف الضمير السياسى عن المبادئ الإنسانية التي
كان عليه أن يحرسها - إلى المآرب الخاصة، التي كان عليه
أن يرفضها.

ولقد استهديت بالتاريخ... ولم أصنع ما صنعه
القاضى التركى القديم الذى حكم بالإعدام، ثم قال:
والآن نسمع الشهود...!!

أجل.. لم ألزم نفسى أحكاماً مُسبقة. بل ذهبت أقرأ
التاريخ واستقرئ حركته، حتى إذا انتهيت من الجولة التي
رأيتها كافية - وجدتنى أخرج بالنتيجة التي حدثتكم

عنها، والتي سترونها مبسّطة على صفحات الكتاب .

ولم يكن من العسير بعد كشف هذه القوى المشبّطة، أن نهتدى إلى العلاج..؛ فالآفة ماثلة في أن بعضنا يرى العالم أضيق من أن يتسع له وللآخرين.. ومن ثم فهو يريد أن يعيش وحده.. جاعلاً نهج حياته: "هذا كله لي"!!..

وهذا سلوك ظالم، ومستحيل أيضاً.

فالعالم عالمنا، و"هذا كله.. لنا كلنا" ..

ولابد من إدراك هذه الحقيقة.

بيد أن ترك هذا الإدراك للأريحية الخاصة عمل غير

مُجد. ولابد من أن تُصاغ في مبدأ، وفي قانون .

والمبدأ، والقانون - كالماء.. يتلون بلون إنائه . فإذا

وَقَعَا تحت وصاية دولة، أو دُول، عادت الأخطاء

مُضاعفة .

من أجل هذا، ينبغي أن يحرس العالم كله هذا المبدأ،

وهذا القانون.

ولكن كيف تتم المحاولة، وكيف تبدأ..؟

تبدأ بأن يُنظَّم العالم نفسه في شكل قانوني، يُزكى

انتظامه في النطاق الإنساني العميم .

ثم...

ثم ماذا..؟؟

معذرة، فقد نسيت أني أكتب مقدمة.. وكدتُ

أستطرد. حتى لكأنى أُعيد تسطير الكتاب من جديد..

فليكن هذا حسبنا.

ولأترك صفحات الكتاب تروى بقية الحديث.

خالد محمد خالد



قَرِيْنًا هَذِهِ ..



في قديم الزمان، كان رجل في نضرة شبابه، يمتطى
صهوة جواد جسور، يقطع الأرض وثبًا من الشرق إلى
الغرب - يغزوها ويفتحها .

كان اسمه - "الاسكندر" ..

وكان شعاره - "العالم امبراطوريتي" ...!

وذات يوم، مات كما يموت الناس. وسكنت أعلامه
الخافقات.

ومضت عشرات القرون ...

ووفد على الدنيا رجل آخر - قطع الأرض وثبًا،

لكن لا غازيًا ولا فاتحًا.. بل باحثًا عن المتعبين،

والمستعبدين - يحطم أغلالهم، ويفكّ إسارهم، ويلقى إلى
أفئدتهم بكلمة السرّ؛ فإذا هم أحرار منطلقون .

كان اسمه - "توم بين" ..

وكان شعاره - "العالم قريبي" !....

كان "الاسكندر" يحمل سيفاً.

وكان "بين" يحمل قلماً..

كان "الاسكندر" سليل سادة فاتحين ..

وكان "بين" ممثل البسطاء الكادحين ..

كان "الاسكندر" أيام كان التاريخ طفلاً يـجـبـو.

أو مراهقاً يلهو.

وجاء "بين" والتاريخ يُشارفُ رُشدَه .

وعلى الرغم من أن كِلا الشعارين - "العالم

امبراطوريّتي"، و"العالم قريبي" - قد هتف بهما رجلان

من الناس - إلا أنّهما لم يكونا شعار الرجلين

وحدهما.. بل كانا شعار عصرين، ومرحلتين من التاريخ

بينهما تباين كبير.

فاتجاه التاريخ، وروح العصر في أيام "الاسكندر" تمثلا في نزوته تلك.. أن يكون العالم امبراطوريته.

واتجاه التاريخ، وروح العصر في أيام "توم بين" - تمثلا في إيمانه المضىء.. بأن العالم قرئته .

روح العصر - أيام "الاسكندر"، كان شديد الوَلع بالبطل الفرد. عميق الاحترام لحق الفتح ، وقوة السيف.. وروح العصر - أيام "توم بين" كان قد فتح عينيه على بطولات الجماهير، وفتح قلبه وعقله لحق الإنسان، وكرامة "الحياة" ..

وهكذا نرى "حركة التاريخ" في يوم، تحمل السيف وتشيد القلاع.. وفي يوم آخر، تحمل الفأس، وتتعهـد المزرعة..!

وهي لا تصنع هذا عفواً، ولا اعتباطاً.. بل وفق قوانين تقودها وتهدئها، وتمضى بها خلال تغير صاعد لا يعرف النكسة ولا الوقوف ..

لقد جاء في عصر "العالم قريتي" وفي العصور التالية له، من أرادوا أن يرفعوا الشعار القديم "العالم امبراطوريتي" .. فهل كان ذلك يعني أن حركة التاريخ أخطأت ميقاتها..؟؟

كلا.. ولقد كانت صيحة "بين"، "العالم قريتي" فجرًا صادقًا لمراحل جديدة في تاريخ البشر.. مراحل ستشهد كفاح الإنسان العظيم من أجل بعث "الإخاء الإنساني" بعثًا واضحًا، أكيدا.

وليس معنى محاولة الماضي التشبث بأرضه وسلطانه، أن التاريخ يريد أن يرجع إلى الوراء .

لهذا، سار مبدأ "العالم قريتي" كانسًا من طريقه كل الرواسب وجميع الفلول والمخلفات، منتصرًا على المحاولات الكثيرة المضادة له.: تلك المحاولات التي قامت قوية، وأخذت صاغرة..!

"العالم قريتي" - عنوان عالم جديد إذن، بزغ فجره من زمان .

ولقد آن لجيلنا أن يدرك هذا جيداً؛ حتى تخلّص له
الحياة وارفة.. عادلة .. آمنة .

وآن لكل "فرد" من البشر أن يحمل تبعاته تجاه هذا
الإدراك.

لم يعد من حق أحد أن ينسحب إلى داخل نفسه،
ويقول: "ماذا أكون في هذا العالم" ..

ولا من حق أى شعب أن يفعل ذلك .

فكل فرد، مهما بيد متواضع الشأن .

وكل شعب مهما يكن محدود القدرة، مغمور
المكانة. أقول: كل فرد، وكل شعب، هو العالم بأسره..

وأى شعب مغمور قابع في أقصى مجاهل الأرض..

وأى فرد، لا يرى نفسه شيئاً مذكوراً - لا يدري أحد
ماذا يكون غداً، شأنهما وشأوهما .

إننا في عصر الناس.. عصر البسطاء.. عصر الرجال

العاديين.

وبين عشية وضحاها - يقفز إلى مقدمة الصفوف

شعب كان قبل قفزته بأيام، مستعبدا مهيبا...!
ويعلو الرءوس الشاخنة، رجل كان قبل علوه نكرة
مغمورا، لا تقع عليه العين في زحام الحياة ..
وكم كان "هتلر" سيقهقه ويسخر، لو تقدم منه
أحد الناس - أيام كان يعمل - نقاشا - وقال له: أيها
النقاش المسكين. اعمل لسلام العالم ما استطعت..؛ فإن
سلامه رهن بمشيئتك وسلوكك..

أجل.. كانت هذه النصيحة لو حدثت، ستثير
سخرية هتلر، وهو يلون جدار الغرفة بفرشاته لقاء قروش
معدودات.. وكانت تستوجب الرثاء لقائلها، وتدمغه
بلوثة العقل!..

ومع هذا؛ فما كان شيء يمثل الحق والواقع مثلما
تمثله هذه الكلمات .

ذلك أن هتلر "النقاش" لم يبق "نقاشا" - بل حمله
تيار الحوادث إلى ذروة الحكم في بلده "ألمانيا" .. وجاء
يوم، أمسك فيه بمصاير العالم كله.. وكانت مشيئته

وسلوكه، هما اللذان حددا موعد الحرب، وساعة
الدمار.. !!!

وكذلك تحول الشعب الألماني الذي كان مصفداً
بأغلال "فرساي" تحول إلى دولة قاهرة، أمرة.. وإلى
"ترسانة" كبرى تروع العالم أجمع بما تلقيه إلى بحاره،
وأرضه، وسمائه، من بوارج، ومدافع وأساطيل...!!
كل "فرد" إذن، له خطره ..

وكل "شعب" إذن ، له دوره..

وكلنا - نحن الناس العاديين - لنا قيمتنا في هذا
العالم، ولنا دورنا الأکید في بقائه عالماً صالحاً،
ووطناً طيباً..

وليس ذلك؛ لأن أيا منا، قد يمسك غداً بمصاير
الأمر فحسب.. بل ولأننا - نحن الناس العاديين -
الخالقون الحقيقيون للحياة الجامعون لها معنى.. ومن ثم،
فنحن المسئولون الأولون عنها، وعن مستقبلها ..

ونحن - الناس العاديين - نُكوّن الرأي العام الذي بلغ

في كل الأرض أشده واستوى - وأضحى قادراً على
فرض كلمته واحترامه .

لم يعد في عالمنا وينبغي ألا يكون في عالمنا مكان
لـ"لويس" آخر يقول "أنا الدولة .. والدولة أنا"...

ولا حاكم من طراز "جيزو" يقول: "كل شيء
للشعب.. ولا شيء للشعب"!!

وكذلك، لا مكان لإسكندر آخر يقول: "العالم
امبراطوريتي"

لا مكان في عالمنا اليوم لغير العاملين من أجل الحق،
والخير والحرية، والعدل، والسلام.

ولقد أذن الله سبحانه للذين كانوا يُستضعفون في
الأرض أن يرثوا مشارقها ومغاربها .

ومنذ عهد بعيد، والتاريخ يولى وجهه شطر هذا
المصير الإنساني الجليل، ويمضي في خط متعرج، قد
ينحرف أحيانا ذات اليمين أو ذات الشمال.. لكنه
سرعان ما يعود إلى طريقه اللاحب، ووجهته الصاعدة

الصامدة ..

والكيان البشرى متجه صوب توحيد عالمه، وتحويله
إلى قرية متألثة بأضواء الحب، والحنان، والتقدم،
والعظمة ..

أجل .. لقد انعقد عزمه على عالم جديد. يتفوق
على ضعفه ويجاوز نفسه.
عالم ..

الإخاء فيه طبيعة، لا رغبة ..
والسلام فيه ضرورة، لا صفة ..
والحرية فيه حق، لا منحة ..
والقوة فيه عدل ، لا سطو ..
والسعادة فيه مشاع، لا امتياز ..

وصحيح أننا نشق طريقنا وسط زحمة هائلة من
المصاعب والتناقضات، والأزمات .. لكننا سنبلغ المرفأ
حتما، وسنحقق كل اجترائاتنا الباسلة الباهرة .
وإن قصة الزحف الطويل، والجليل - الذى ساره

نوعنا، وقطعته أجيالنا السالفة لتشير إلى الفجر، وتكاد
تحدد ساعة الانتصار النهائي على كل العقبات
والمثبطات.

مرة أخرى، نقول: في قديم الزمان، كان ثمة غاز
شعاره "العالم امبراطوريتي".

ومرة أخرى، نقول: إن ذلك الغازي الفاتح لم يكن
دخيلا على عالمه وعصره - بل كان الابن البكر المطيع
لروح جيله، وعصره .

كان حامل الراية، ومنفذ المشيئة .

ولطالما شهدت دنيانا أباطرة، وقياصرة، عبادت
الشعوب صلفهم، وشادت بجورهم - في أزمان كان
العدل فيها مرادفا للقوة؛ فالعادل هو القوى... وكان
الغزو فيها مرادفا للحضارة؛ فالغازي هو الرائد...!

أزمان تطورت خلالها عادة أكل لحوم البشر تطورا
ممتعا! فمن إنسان كان قبل هاتيك الأزمان.. ينضج في

قدر، ثم يوضع فوق السماط بين صحاف الطعام.. إلى ملايين من الناس تجزر في الحروب وتنحسر.. ثم تترك للعنن، ولجوارح الطير.

حدث هذا.. ولا يزال قوم يحاولون له أن يحدث، من أجل التروة المسعورة المنقرضة.. نزوة "العالم امبراطوريتي"!!

أجل.. فكل قيصر غابر، أو معاصر - يريد أن تحقق راياته على أوسع مساحة ممكنة من الأرض.. ويدخل في حظائر رقيقه أكبر عدد ممكن من البشر.. ويضيف إلى ثرائه أوفر قدر مستطاع من الغنائم والأسلاب...!!!
وكان العالم فيما سلف، أكثر جهلا، وأكثر استسلاما وخوفا.. وأهم من ذلك، كان أكثر تباعدا، وعزلة .

وهكذا، كانت استجابته للمشاركة بطيئة وجلية، وكل بلد، لم يقع في شبك الغازي.. لم يكن يهتم بمصير البلد الآخر الذي وقع .. حتى يجيء دوره ذات يوم،

وتأزف آزفته، ويلقفه الغول الذى لا يشبع؛ فيدرك حينئذ أنه أخطأ الحساب، وأن مصيره تقرر فى نفس الساعة التى تقرر فيها مصير أول ضحية سكت عنها، وظن ألا وشيجة بين مصيره ومصيرها..!

لم يكن الناس - أيامئذ - قادرين على إدراك أن "العالم قريرتهم" كان ولاؤهم لأنفسهم لا لعالمهم .. وهكذا سارت على الأرض فى عنفوان، وغلظة، وكبر. جحافل الإسكندر، وجيوش دارا، وإرهاب جنكيزخان. وقائمة طويلة كليل الشتاء، من الغزاة والجبارين .

حتى جاء يوم صباح فيه الناس: ها.. لقد ولد العالم الحديث..

وكان ثمة عالم حديث يطل بوجهه الباسم.. عالم يتسم بالاهتمام بالإنسان، وبحقوقه، وبمصيره.. عالم كان، ولا يزال يحمل رواسب أيام خلت... أيام الحقوق الإلهية المنتحلة للملوك والأمراء، والمستبدين - لكنه على

الرغم من هذا قطع، ولا يزال يقطع طريقه وثبا نحو عالم
إنساني ودود.. نافضا عن كاهله الكثير جدا من أوزار
القرون الماضية، وضلالها.

وعالمنا الحديث مسلح بقيم ذكية، تتخذ من كل
مواطن الضعف مزية ونفعا ..

مثال ذلك، حروب نابليون.. إنها على قسوتها
وبربريتها، طوحت بمبادئ الثورة الفرنسية وأذاعتها..
وأزالت كثيرا من التخوم والحدود، وهيات الأرض
لوحدة محتومة..

فألمانيا - مثلا - قبل غزو "بونابرت" كانت تتكون
من "ثلاثمائة" دويلة متفرقة، متباغضة - فوحدت يومئذ في
"تسع وثلاثين" حيث كان ذلك تمهيدا لاتحادها الكامل
فيما بعد على يد "بسمارك" ..

و"إيطاليا" أيضا، كانت عند غزو "نابليون" اثنتي
عشرة ولاية - فوحدت في ثلاث فقط، حيث تم توحيدها
فيما بعد على أيدي ماتزيني، وكافور، وغاريبالدي ..

هكذا اتخذ روح عالمنا الحديث من عدوان نابليون
مزية، ونفذ من خلال أطماعه إلى تحقيق إرادة التجمع،
والوحدة .

وفي الوقت الذي كان هناك آل "بوربون" وأسرة
"هابسبورج"، وعائلة "هانوفر"، وآل "رومانوف"،
وآل "عثمان" - يملكون ويحكمون ويسودون.. كان هناك
كذلك، توم بين، وماركس، وأنجلز، وروبرت أوين،
وسان سيمون، وفولتير، وروسو، وتولستوى،
ومونتسكيو - يقودون القلب البشري، والفكر الإنساني
إلى العمل القوي من أجل تحرر شامل عميم ..
وعلى أصوات هؤلاء الأفاضل، أخذ الوجدان البشري
يصحو، ويفيق .

والثورات التي كانت تقوم على أساس عنصري،
صارت تقوم على أساس عميم من حقوق الإنسان وتتجه
إتجاهها أكثر عالمية وشمولا..

فمثلا - حين ثور في وجه النمسا أمم تستعبدتها

النمسا، ويلعب بمقدراتها طاغية أوربا "مترنيخ" - نرى
شعب النمسا نفسه يعمل بقيادة المثقفين فيه - على
إسقاط "مترنيخ" وفتح باب الحرية للشعوب التي
تستعبدتها النمسا.. وهكذا تلاشى الحس العنصرى
القومى - أمام الحس الإنسانى العظيم .

وكذلك عندما تداعت أمجاد الإمبراطورية العثمانية
فوق رءوس طغاتها الخلفاء.. ونهضت ولايات
البلقان "المسيحية" هاتفة بحريتها واستقلالها.. نرى
الشعوب العربية "المسلمة" تثور فى نفس الوقت على
تركيا - غير متعصبة "دينيا" لوطن الخلافة الإسلامية.. بل
ساعية هى الأخرى وراء حريتها واستقلالها.. هادرة مع
الموكب الذى لا يعرف غير الحرية وجهة وغاية.
هكذا اكتشف عالمنا الحديث نفسه، وأدرك مصيره.

وجاء العلم ناشرا قلوبه وشرعه.. جاء فصيح
نظرتنا إلى الكون، وإلى الحياة، وإلى أنفسنا وعلاقاتنا؛

فإذا نحن على إثر هذا نتداني، ونقترب وإذا الجغرافيا
الإنسانية تنقلب انقلابا هائلا.

لم يكن العلم يعنى مجرد المعرفة النظرية .. بل كان
يعنى كل ما تفضى إليه هذه المعرفة من حركة، وكشف،
واختراع..

يعنى الأساليب الجديدة فى الصناعة، والزراعة،
والتجارة..

إن تطورات فذة قد حدثت فى هذه القطاعات
جميعا، ومع هذه التطورات قامت أزمات وتناقضات من
نوع جديد.. وشد زناد "الربح" إلى أقصاه، فمضى يعالج
تضخمه واختناقه بالاستعمار.. بيد أن إرادة الإخاء
والتجمع كانت تتسلل، وتعمل، وتدفع المعوقات،
وتلاقى أعداءها فى مواقف فاصلة..

وكانت "حركة التاريخ" وهى ثمخر هذا العباب،
لا تفتأ تلقى فى روع الناس أن عالمهم هذا واحد.. وأن
أية كارثة تصيب أقصى شماله، سيصيب وبالها أقصى

جنوبه.

وثمة سؤال كان يمكن أن يوجّه لسكان العالم في بداية عام - ١٩١٤ - ولا يجد من يجيب عنه سوى أفراد معدودين.. ويمكن أن يوجّه اليوم لسكان الأرض جميعاً دون أن يجد ممن يعرفون الجواب سوى نفر قليل جداً قليل..

فأينما يعرف شخصاً آخر اسمه "جافريلو برنسيب" ..
 وشخصاً اسمه "فرديناند" .. ومدينة اسمها
 "ساراجيفو" ...؟؟؟

إن مئات الملايين منا لا يعرفون عن هذه الأسماء شيئاً.

ومع هذا؛ فإن مئات الملايين من الناس، سيقت من حيث لا تشعر ولا تريد، إلى حرب عالمية ماحقة بسبب هذه الأسماء الثلاثة ..!!!

نعم؛ فإن طالباً صربياً هو "جافريلو برنسيب" أطلق رصاص مسدسه على وارث عرش النمسا، واسمه

"فرديناند" في مدينة اسمها "ساراجيفو"؛ فإذا هذه الرصاصات تصبح السبب المباشر، وإن لم تكن السبب الأوحد، في قيام الحرب العالمية الأولى التي التهمت حصاد الحضارة.. وسيقت الجموع البشرية من كل مكان لتكون لها علفا وقربانا..!

ألم يكن ذلك درساً من التاريخ - أى درس - ليعلم الناس أن العالم قرية..؟! وأن عود ثقاب واحد يُمسك بأعواد من الحطب في مكان ما من هذه القرية، قادر على حرقها جميعاً..؟

قد نتساءل: أى عدالة في أن يدفع سكان الكرة الأرضية ثمن رصاصة غادرة أطلقها "تلميذ" في مكان قصي بعيد..؟!!

لكن العدالة أن يحدث هذا.. والعدل التاريخي هو الذى فرض على الناس كلهم هذا الفداء - لا فداء وارث عرش النمسا؛ بل فداء الحقيقة التي رفض الناس أن يبصروها، ويأخذوا بها.. حقيقة أنهم عائلة واحدة،

في قرية واحدة ..

حقيقة أنهم ركب سفينة واحدة. إذا ترك أحد راكبيها يلهو بمثقب في قاع السفينة، فقد استحق الآخرون الغرق والهلكة والضياع .

ولقد كان العالم كله مسئولاً عن الأسباب التي تراكمت وتجمعت بين يدي الحرب العالمية الأولى.. وواجب عليه أن يعرف هذا، فإذا جهل ولم يعرف، فلن يشفع جهله له..

إن الجهل بأن السم يقتل، لا يفيد شيئاً في إنقاذ حياة من يتناول السم جاهلاً عقباه..

وكذلك جهل البشر بأن تمزق عالمهم مهلكة لهم، لا يفيدهم شيئاً.

وهذا هو الدرس الذي يهيب بنا أن نحذقه.

في عام (١٩٣٠) قامت في دولة ما أو دولتين أزمة مالية بسبب آثار الحرب، وبسبب اضطراب نظمها الاقتصادية.. فهل ظلت الأزمة محصورة داخل حدود

هاتين الدولتين ..؟

كلا، ولقد طارت كاللهب حتى غطت وجه الأرض
واجتاحت كل الدول، ودعى العالم كله ليحمل - كارهاً
- وزر تلك الأزمة الطاحنة .

وذاذ يوم قام في ألمانيا مستبد أهوج اسمه "هتلر"
وقام في إيطاليا دوتشى مغرور اسمه "موسوليني".
سير الأول "فرق العاصفة" تدق الأرض بأحذيتها
المختالة الثقيلة..

ووقف الثاني يخطب فوق فوهة مدفع صارخاً "الويل
للأمم غير المسلحة" ..

فهل عادت شرور الطاغيتين على بلديهما
وحدهما ..؟

كلا.. وحينما سكت العالم عن غرورهما، بل صفق
أحياناً إعجاباً بهما،.. طالبت العدالة التاريخية بالثمن،
وألزمت القصاص وهكذا أصبح ذات يوم، فإذا هو وجبة
شهية، ووليمة دسمة لحرب عالمية ثانية..

"العالم قرينتا" ليست مجرد شعار جميل .. إنها الحقيقة .. وسيظل العالم يدفع ثمن كل خطأ، يرتكبه في أى مكان مجهول، أى فرد مجهول .. ذلك لأن العالم قرية .. العالم وحدة .. العالم كيان واحد كالجسد الواحد ..

ولقد تشابكت المشاكل العالمية، حتى صارت ظروف نشوئها وأسباب علاجها - عالمية، لا إقليمية .. وإن العالم اليوم لينادى إلى وحدته، كما لم يناد من قبل.

لقد رأينا حين قامت مصر بتأميم قنواتها، كيف وقف العالم كله ممسكا أنفاسه .. وكأنما القناة المصرية، تخترق كل شارع في الدنيا بل كل بيت من بيوتها ! .. إن الناس - جميع الناس - مدعوون اليوم أفراداً، وشعوباً، وحكومات - كى يكتفوا سلوكهم وتفكيرهم وفق هذا الإدراك.

عليهم ألا يفكروا لأنفسهم وحدها .. ولا يفكروا

بعقولهم وحدها.. بل يفكروا للعالم جميعه، وبعقل العالم جميعه.

هذه هي الضرورة الإنسانية والتاريخية التي كشفناها بعد طول عناء.. والتي لا تقل وثاقة وحتمية عن أى قانون كونى.. ولا سبيل بعد الآن إلى تجاهلها، ولا سبيل إلى الفرار من تبعاتها.. فبدلاً من أن نكتوى بعاقبة الإفراط والتفريط، علينا أن نكشف القوى التي ترفعنا إلى مستوى الحياة فى عالم واحد لا أنانية فيه ولا حرب، ولا استغلال ولا كراهية.

وهذا يقتضى أن نتعقب ونواجه كل عوامل الفرقة والتمزق، والضياع .

وليس هناك دليل أمين يدلنا على تلك العوامل ويفضحها سوى التاريخ، فلنمض معه، حتى نمسك بها غير متنكرة، ولا خادعة ..

التاريخ سجل يطوى كل واقعنا الإنسانى، ويصون وثائق تطورنا.. فلنسأله: لماذا نختلف ونتحارب..؟

من أى مادة صنعت المناجل التى حصدت الملايين
البريئة من صفوف البشر..؟ من الطمع..؟ من البغض..؟
من الجهل..؟ من الغطرسة والكبر..؟ من خلل النظم،
وفساد الأوضاع..؟

من بعض هذه، أم من كل هذه، صنعت مناجل
الموت والقناء..؟

لنسأل التاريخ فى حقه القريية، ولنحاول أن نكشف
فى ضياء أنبائه، تلك القوى الشريرة التى عملت،
ولا تزال تريد أن تعمل على تقويض البناء البشرى،
وتشتيت الصف الإنسانى.





من الحروب الصليبية
إلى الحرب العالمية الثانية



- " يا شعب الله المحبوب المختار "
- " لقد جاءت من فلسطين ، ومن القسطنطينية أنباء . . "
- " محزنة ، تعلن أن جنسا لعينا أبعد ما يكون عن الله - "
- " قد طغى وبغى فى تلك البلاد ، بلاد المسيحيين . . . "
- " يقتلون إخوانكم ويأسرون ويهدمون المذابح . . . "
- " فى الكنائس بعد أن يدنسوها برجسهم !! "
- " فليثر همتكم ضريح المسيح المقدس - ربنا ومنقذنا - "
- " الضريح الذى تمتلكه الآن الأمم النجسة "
- " إن المدينة العظمى القائمة فى وسط العالم تستغيث بكم "
- " أن هبوا لإنقاذها "
- " فقوموا بهذه الرحلة راغبين متحمسين تتخلصوا من "
- " ذنوبكم .. وثقوا بأنكم ستنالون من أجل ذلك . . . "

- "بجدًا لا يفنى فى ملكوت السماوات."
- "لا تدعوا شيئًا من أموالكم ولا من شئون أسركم . ."
- "يقعد بكم عن القتال.. ؛ فالأرض التى تسكنونها"
- "الآن، والتى تحيط بها من جميع جوانبها البحار، . ."
- "وقُنن الجبال - أرض ضيقة لا تتسع لسكانها . . ."
- "الكثيرين. وتكاد تعجز عن منحهم ما يكفيهم من الطعام"
- "ومن أجل هذا يذبح بعضكم بعضًا، ويلتهم بعضكم"
- "بعضًا، وتتحاربون ، ويهلك الكثيرون منكم"
- "فى حروب داخلية"
- "إن أورشليم أرض لا نظير لها فى ثمارها فانتزعوها . ."
- "من ذلك الجنس الخبيث وتملكوها أنتم !!!"

هذا هو النداء الذى وجهه البابا "إربان الثانى" إلى شعوب أوروبا داعيا إياها إلى الحروب الصليبية . وهذا النداء هو الطلقة الأولى فى تلك الحروب.

ونحن الآن فى أوروبا.. فى القرن الحادى عشر حيث

تتكون "أوروبا" وتصنع نفسها.. وحيث تتكشف رويداً رويداً جميع القيم التي ستحدد لها اتجاهها الفكري والسياسي والاقتصادي..، وحيث تبرز إلى المقدمة العوامل التي ستؤثر في حركة التاريخ، وتدفعها .

ولقد تسأل: ما شأن أوروبا بموضوعنا هذا ..؟

ألا فلنعلم أن قصة "أوروبا" هي قصة المرحلة الماثلة من مراحل التطور البشري، والتحول العالمي.. ولا سبيل لمعالجة قضية السلام العالمي.. والإخاء الإنساني بعيداً عن أوروبا، وعن الأحداث التي صنعت أوروبا، وصنعتها أوروبا..

• فالقارة الأوروبية - هي الوارث الأكبر للتراث

الإنساني جميعه.. اليوناني.. والمسيحي.. والإسلامي ..

كما أنها اليوم، الراحل الذي يرثه عصرنا

وأجيالنا.

• والقارة الأوروبية - هي الوعاء الذي تشكلت

داخله هذه الثورة الصناعية الكبرى التي دفعت العالم

وأشاعت في حركته الداهمة كثيراً من التناقضات،
وملأت الحياة الإنسانية بفلسفات ومذاهب، وعوامل
شتى من الفكر ومن المحاولة - هي التي تحدد اليوم للتاريخ
وجهته وطريقه .

• والقارة الأوروبية - هي الجسر الذي تعبره اليوم
حضارتنا الإنسانية، مولية وجهها شطر تطور أمثل، وغد
أفضل..

والقوى التي تبث في الحياة الإنسانية كثيراً من الخير،
وتصيبها بكثير من الشر والضرر.. ترعرعت في أوروبا
وازدهرت - مما يجعل دراستها في وطنها هذا أمراً محتوماً.
وأوروبا كقوة سياسية ذات تأثير عالمي تبدأ - في
تقديرنا - من الحروب الصليبية.. تلك الحروب التي
حملت إلى أوروبا ثقافة كانت تنقصها.. وفتحت عينيها
على ثروات كانت تريدها، وعلى دور تاريخي كانت
تتهيا له.

هذا الدور الذي يبدأ باليوم الذي سارت فيه طلائع

تلك الحروب التي ظلَّت تعاود الظهور والالتحام على مدى مائتي عام، بل أكثر من مائتي عام، والتي سميت بالحروب الصليبية ..!

* * *

ونعود إلى البابا "إربان الثاني" يتنقل بين شعوب القارة مذيعةً فيها نداءه السالف .

"يا شعب الله المحبوب المختار. . ."

لقد أخذ "إربان" على كاهله أن يصنع من شعوب أوروبا قذيفة يرمى بها ما أسماه "الشعوب النجسة".

وكان من الطبيعي أن يلجأ للحمية الدينية يثيرها، ويستجيشها، فذهب يحدث الناس هناك عن إخوانهم الذين يقتلون في فلسطين وعن الضريح المقدس الذي يلقي المسلمون فيه رجسهم ونبجسهم .

والتاريخ يشهد. كيف كان المسيحيون في فلسطين ينعمون بالحرية والأمن بين إخوانهم العرب والمسلمين ..

و حين قام حاكم مجنون أصاب المسلمين من شره
 أكثر مما أصاب المسيحين - وهو الحاكم بأمر الله...
 نقول: حين قام هذا الحاكم في نوبة من نوبات
 جنونه بهدم "كنيسة الضريح" نهض المسلمون في
 كل الأقطار، وجمعوا مالا جَمًّا وأعادوا البناء المتهدم
 أروع وأبدع مما كان.

فلماذا وقف البابا "إربان" موقفه ذاك..؟
 وما حقيقة الدوافع لحرب لبثت فوراتها أكثر من
 مائتي عام..؟!

هنا تتلقى "أوربا" أول وأخطر درس في حياتها
 السياسية.. ويتلقاه العالم كله منها .

• بدأت الحروب الصليبية بطليعة لم تصبر من فرط
 حماسها ولم تنتظر الموعد الذي حددته "البابا" لبدء
 الزحف، فسارعت إلى الخروج في مارس عام ١٠٩٦
 بقيادة "بطرس الناسك".

ولم تكد هذه الطليعة - التي كان يُنتظر منها الورع والتقوى - لم تكد تقطع من الطريق بضع فراسخ حتى دهمها اليأس والجزع. فمضت تسرق وتنهب وتهتك الأعراض في بلاد المسيحيين أنفسهم مما جعل "بطرس الناسك" يعتزلهم، مشمئزاً ساخطاً .

• بعد هذه الطليعة، تحركت الحملة الأولى يقودها أمراء أوروبا ولا يكادون يبلغون منتصف الطريق حتى يصير بأسهم بينهم شديداً.. ويذهب كل منهم إلى سبيل. يفتح لنفسه فتوحاً خاصة ..

ويشتمُّ "إلكسيوس" إمبراطور "بيزنطة" أنهم يريدون "القسطنطينية" المسيحية، أكثر مما يريدون "أورشليم" وذلك لما في القسطنطينية من كنوز وأموال، فيتقى شرهم بالرشوة ويشترى ولاءهم - الذي سرعان ما خانوه - بالأموال والهدايا وبعد ثلاث سنوات من زحفهم يبلغون "أورشليم" ويفتحونها.

• وتقوم الحملة الثانية بقيادة "لويس السابع"،

و "كنراد الثاني" إمبراطور ألمانيا، فتسوم بعض بلاد أوروبا المسيحية الخسف والعذاب، وعند مشارف القدس تنزل بها هزيمة ماحقة.

- وتلوها الحملة الثالثة. يقودها "قلب الأسد" وتنتهى بالصلح ..
- ومن بعدها تأتي الحملة الرابعة.. فالخامسة..
- فالسادسة..

- ويحىء مسك الختام بالحملة السابعة يقودها "لويس التاسع" ملك فرنسا وأسير دار ابن لقمان !..

عبر هذه الحروب التي دامت أكثر من مائتي عام تخبو تارة وتتسع تارة أخرى.. تكشف الوجه الحق لإحدى القوى المخربة التي تعمل لتقويض التفاهم العالمى، والإخاء الإنسانى..

وتبين تماما أن الدين قد استغل استغلالا رديئا لإنجاح غزو كانت كل بواعثه اقتصادية عدوانية.. وعرف الناس

أخيراً - أن الصليب لم يكن يقود الناس إلى معارك مقدسة كما ألقى في روعهم.. بل إن التجارة هي التي قادت الصليب في خداع ومكر إلى معارك الربح والإثراء.. وإلى مآرب أخرى..

ولسنا ندرى: هل كان "إربان" يعي هذه الحقيقة حين دعا أوروبا إلى الحرب، وحين قال لها في ندائه السالف:

"إن الأرض التي تسكنونها تضيق بكم،"
 "وتعجز عن إمدادكم بكفايتكم من الطعام"
 "فاخرجوا إلى أورشليم، فإنها أرض"
 "لا نظير لها في خيراتها . . ."

أقول: لا ندرى هل كان البابا "إربان" يعي حقيقة الدوافع لتلك الحروب. أم أن أساطين التجارة والمال، قد أحسنوا استغلاله.

ومهما يكن من أمر؛ فإن إغراءه الناس وحضهم على الحرب بسبب من المعيشة والرزق، يدل على أن

الدين وحده لم يكن كافيًا لإضرام تلك النار .
والآن، لننظر كيف أن التجارة وحدها كانت وراء
تلك الحروب التي كادت تعصف إلى الأبد بكل روابط
الإخاء والقربى بين الديانتين الكبيرتين - الإسلام
والمسيحية..؟

إن المدن الإيطالية الأربع - البندقية، وجنوى، وبيزا،
وأملفي - كانت تقوم بتصدير المحاصيل الإيطالية،
ومحاصيل البلاد الواقعة وراء جبال الألب..

هذه المدن، اتسع نشاطها، ونمت تجارتها عندما
انتزعت صقلية وجزء كبير من أسبانيا من أيدي
المسلمين، فخلص غرب البحر الأبيض المتوسط لها..
واشرأبت أطماعها بعد هذا إلى شرق البحر الأبيض الذي
لا يزال في قبضة المسلمين.. وهنا وضعت تلك المدن
خطتها للسيطرة على شرق الأبيض المتوسط ثمهيداً
للسيطرة بعدئذ على أسواق الشرق الأدنى.

هذا هو السبب الذي أشعل الحروب الصليبية

وفضحه سلوك الحرب نفسها .

• ففي الحملة الثانية، نجد "بلدوين" الذى ورث انتصارات أخيه، ينصب نفسه ملكا على "أورشليم" بمساعدة المدن الإيطالية نظير أن يسلمها يافا، وصور، وعكا، وبيروت، وعسقلان.. أى يسلمها جميع المرافئ والثغور التى تريدها لتجارتها!

• وعندما دعا القديس "برنار" للحملة الثانية، يتقاعس عنها "كنراد" إمبراطور ألمانيا.. فتتقدم البندقية، وجنوى، وبيزا.. وتغذى الفتنة الداخلية التى كانت قائمة يومئذ فى ألمانيا.. ثم توغز إليه بأن خير سبيل للقضاء على هذه الفتنة أن يشغل شعبه بالحرب خارج بلاده .

وهكذا تزعم "كنراد" الحملة الثانية...!

• وبعد موت "صلاح الدين" يدعو البابا "أنوسنت الثالث" إلى الحملة الرابعة، ويرسم بنفسه خطة الحرب، وتقضى بأن تتجه الحملة أولا إلى مصر فتستولى عليها.. ثم تثب منها على بيت المقدس.

وتؤيد "بيزا" و"جنوى" هذه الخطة.. ولكن البندقية
تحاول دحضها.
لماذا !...؟

إن "البندقية" آتت. كانت تربح من مصر أموالاً
طائلة. إذ تصدر إليها الأخشاب، والحديد، والأسلحة،
وتستورد عن طريقها الرقيق.

وانتصار الهجوم المقترح عليها - يجعل من بيزا
وجنوى شريكتين لها بعد النصر في تلك الأرباح التي
تحتكرها.

من أجل هذا، عارضت الحملة.. ولما أكرهها البابا
على القبول تظاهرت به، وأسهمت في تمويل الحملة
وإمدادها بالخيول والسلاح، لكنها في نفس الوقت،
أبرمت مع مصر اتفاقاً سرياً - ضمنت لها فيه تعويق الغزو
وإحباطه..!

• ونحن نعلم أن الامبراطورية البيزنطية، كانت
مسيحية بل كانت معقل المسيحية.. ومع هذا، لم تكد

تلغى الامتيازات التجارية التي كانت تتمتع بها مدينة البندقية.. حتى تلقت من الجيوش الصليبية نفسها ضربة قاتلة .

لقد جهزت "البندقية" جيشا قوامه عشرة آلاف جندي، وسيرته إلى القسطنطينية ..!

وثار البابا، وأندرجرمان كل من يشترك في هذا الجيش.. ولكن رنين المال، أصم الآذان عن نداءاته المقدسة.

وفورا، تحركت إلى القسطنطينية "المسيحية" أربعمئة وثمانون سفينة.. ودخلها الجيش الصليبي ظافرا فاتحا. وعاث فيها تخريبا ، وفسادا، وعربدة.

يقول "ديورانت" في كتابه "قصة الحضارة":

"... وعانت كنيسة أيا صوفيا يومها"

"على أيدي المسيحيين أنفسهم ما لم تعان مثله"

"على أيدي الأتراك فيما بعد عام ١٤٥٣...."

وبعد.. أليست هذه الشواهد التي سقناها كافية
 للدلالة على أن الحروب الصليبية، لم تكن صليبية..؟؟
 بلى.. ولقد كانت حروب التجارة، والربح، ورأس
 المال..

ولا شيء سواها .

وثمة مشاهد أخرى، لا بد من تدبير مغزاها .
 فالحرب الصليبية لم تتخذ المسلمين وأرضهم هدفها
 الأوحد.. بل صبت عذابها صبا على يهود أوروبا .
 فالحملة الصليبية الأولى - قرر زعمائها قبل السير
 إلى أورشليم أن يجهزوا على اليهود بقتلهم وحرقتهم .
 وبالفعل، زحفت الجيوش محاذية نهر الرين، فأبادت
 اليهود إبادة شاملة .

وقد تسأل: ولماذا اختار الصليبيون هذه الجهة
 بالذات..؟

والجواب يكشف لك عن سر الحروب الصليبية
 كلها ففي محاذة نهر الرين كانت تقع مراكز التجارة

والأعمال اليهودية .

ولما كان المحركون الحقيقيون للحرب الصليبية هم أساطين التجارة والمال في البندقية، وجنوى؛ فإن خطتهم تعتمد على التخلص من كل منافس قوى.. واليهود في أوروبا - هم ذلك المنافس... وإذن فلتجهز عليهم جيوش الصليب ..!

وهكذا بدأت الحملة الأولى عملها - وفي مذبحه "وورمز" وحدها قتلوا ثمانمائة يهودى - وأشعلوا النار في حى التجارة والمال .

وفي الحملة الثانية - بدأت الجيوش رحلتها بهجوم مبيد على يهود أوروبا.. ووقف القديس "برنارد" وكان معبود المسيحيين جميعا.. وقف ينهى عن قتال اليهود.. لكن قوة المال كانت أنفذ من صوته الوديع .

وفي مذبحه أخرى تدعى "يوردو، وانجوليم" بفرنسا، طرح الصليبيون ثلاثة آلاف يهودى على الأرض مصفدين.. ثم جيء بالخيل يعلو ظهورها الفرسان..

واتخذت من جثث هؤلاء أرضا تطؤها الخيل وتجرى فوقها في سباق عنيف حتى هلكوا جميعا ووقف البابا "جريجورى التاسع" يذم، ويلعن الصليبيين على وحشيتهم.. ولكن البابا الحقيقى للحروب الصليبية - كان رأس المال الذى أراد هذا فكان له ما أراد !..!

وفي ختام تلك الحروب توجس التجارة خيفة من فلول الجيوش الصليبية؛ فتغرى بهم الكنائس والحكومات. وهكذا رأينا "فرسان المعبد" الذين كانوا من أشد المقاتلين حماسا واندفاعا - يتعرضون لنقمة الكنيسة والحكومات فى كل بلاد أوروبا.

ورأينا صكوك الغفران التى كانت تمنح لمن يقاتل المسلمين، صارت تمنح لمن يقاتل "فردريك الثانى" وجيوشه المسيحية..!!

انتعشت قوى المال والتجارة بهذه الحروب انتعاشا لم تظفر به "روما" نفسها فى حياتها وبذخها.. وغمرت أوروبا بخيرات لا عهد لها بها من قبل.. فطعمت الذرة،

والأرز، والسّمسم، والبطيخ، والمشمش، والتمر،
والليمون، واشتد هيامها بالتوابل.. ولبست الدمقس،
والساتان، والمخمل والأقمشة المزركشة.. واستعملت
الطنافس، والأصباغ، والعطور.. وازدانت بالجواهر
والياقوت .

وتلقت "أوربا" الدرس كاملا من هذه الحروب
وكان يتلخص في هذه العبارة :

"الحرب تنعش التجارة " .. !!

بعد هذا لم يصبح الشرق مأرب التجار وحدهم..
بل سارعت الحكومات، وسارع الملوك إلى الفتح حتى إن
معظم الرحلات التي قامت لكشف مجاهل الأرض،
كانت في الحقيقة رحلات في طلب الثروات بل وفي
طلب الأفاويه بالذات.

لقد فتنت "أوربا" بالأفاويه فتونا شديدا. حتى إن
الزنجبيل والقرفة. كانا يباعان بميزان الصيادلة والصاغة..
وكان الفلفل الأسود يباع بالحبة.. وثن الحبة الواحدة،

زنتها فضة..!!

يقول "زفايج" في كتابه "فاتح البحار" ..
 "لقد كانت المرأة التي أوحى برحلات كولمب ،"
 "ودياز، وجون كابوت، وغيرهم من عظماء الرواد"
 "في عصرهم -ثمرة الرغبة في الاهتداء إلى طريق تجارة"
 "جديدة مأمونة إلى جزر "البهار" الشرقية" ...!!

* * *

غذت الحروب الصليبية كل قطاعات التجارة في
 أوروبا.. وأفاضت على النشاط المالى حيوية جارفة .
 وفي نفس الوقت، رأت أوروبا ذلك الرخاء، وذلك
 التقدم، ثمرة من ثمرات الحروب الصليبية.. واعتنقت
 الفكرة القائلة "الحرب تنعش التجارة" ..
 وهكذا ستمضى أوروبا حياتها.. تعالج أزماتها
 بالحروب. وتنمى ثرواتها بالحروب ..!!
 ولسوف تنهض المصارف والشركات.. وسوف
 تبلغ من الضراوة حدودا فوق طاقة الجماهير المستغلة

المستترفة.. وسوف تمب تلك الجماهير لحماية مصالحها في ثورات تملأ أوروبا.. متخذة نهجا من فحوى ذلك الشعار "كل ثروة سرقة.. وكل ثرى سارق".. وسوف تحدث انتفاضاتها هذه رد فعل آخر لدى أرباب المال والمصالح الكبرى فيزداد ضغطهم وتكالبهم ..

وبعبارة واحدة، ستعانى أوروبا حياتها.. ولكنها لن تتخلى عن هذه الحكمة "الحرب تنعش التجارة".. وهكذا نلتقى بحرب أخرى لها في التاريخ شهرة قريبة من شهرة الحروب الصليبية.. تلك هى "حرب المائة عام".

لقد استغرقت أعمال تلك الحرب مائة عام كاملة ما

بين بريطانيا وفرنسا.

والعجيب أن سببها هى الأخرى ، كان التجارة .. بل إن تاجراً واحداً - لكنه واسع الثراء والنفوذ - هو الذى أجب تلك الحرب.

أجل.. ففى عام - ١٣٣٦ - منعت إنجلترا تصدير

الأصواف إلى "الفلاندرز"، التابعة لفرنسا.. كما امتنعت

عن استيراد الأقمشة الفلمنكية منها .

وكان عميد هذه التجارة في "الفلاندرز" رجلاً اسمه "يعقوب فان ارتفلد" ..

ورأى يعقوب هذا أن تجارته ستبور؛ فأبرم مع "إدوارد الثالث" ملك إنجلترا اتفاقاً سرّياً يسمح لإنجلترا احتلال "الفلاندرز" وتستأنف بعد هذا كل علاقاتها التجارية معها وبدأ تنفيذ الاتفاق بين التجارة والسياسة .. بل بين التاجر والملك .. وبمجرد البدء في تنفيذه بدأت حرب "المائة عام" .. !!!

وفي أواخر القرن الثامن عشر. تتولى حكومة الإدارة حكم فرنسا، وفرنسا مفلسة خاوية.. ولا يكاد بونابارت يفتح لها "بلجيكا" وتذوق طعم خيرات هذا الفتح من فحم وحديد ومصانع.. حتى تدفع نابليون، ويدفع هو نفسه إلى فتوح تلو فتوح .

وتجلبو "بريطانيا" مكرهة عن الولايات الأمريكية بعد انكسارها في حرب الاستقلال.. ولكنها بعد أعوام طويلة من جلائها، تعود لغزوها من جديد، أو تحاول غزوها من جديد حين تراها تتاجر مع فرنسا - الأمر الذى يعرض التجارة البريطانية للخسارة والبوار!..

وفي الشرق الأقصى، تقود التجارة وأطماع المال أكثر حروب التاريخ خزيا وظلما.. تلك هى "حرب الأفيون".

ذلك أنه فى عام - ١٧٩٦ - تسن حكومة الصين تشريعا ينقذ رعاياها من الأفيون، ويحرم على الناس تعاطيه والاتجار به .

وكان "الأفيون" تجارة رابحة تصدرها أوروبا وبريطانيا بالذات إلى الصين ..

وهكذا صادرت حكومة الصين عام - ١٨٣٩ - عشرين ألف صندوق من الأفيون، مهربة من بريطانيا..

وعندئذ تحرك التجارة البريطانية - الدولة والجيش فتزحف
 أساطيل بريطانيا العظمى - ولا تنسوا كلمة العظمى هذه
 - تزحف إلى الصين فتضربها وتحتل جزيرة "هونج
 كونج" التي لا تزال تحتلها حتى اليوم.. وتنتعش
 الشركات البريطانية يومئذ ببركات حرب الأفيون !!
 ولم تكن تجارة الأفيون وحدها - الدافع لحرب
 الأفيون.. فإن التجارة يومئذ كانت قد تطورت. فصارت
 لا تعنى تصدير السلع فحسب.. بل وتصدير رءوس
 الأموال لتوظيفها في نشاط تجارى .

وتبصر فرنسا بنجاح حرب الأفيون، فيسئيل
 لعابها.. وتضغط الشركات الفرنسية على الحكومة
 والجيش.. فتشن هى الأخرى غزوا لبلاد الصين..
 مفسحة للتجارة الفرنسية مكانا خصبا.
 وبعد فرنسا تتقدم روسيا القيصرية مدلية هى
 الأخرى دلوها..!

وتضج اليابان من سوء استغلال أمريكا وبريطانيا لموانئها التجارية.. وتهم باتخاذ الإجراءات التي تنقذ اقتصادها من الصادرات المتدفقة عليها كالسيل.. والعملية الأجنبية الهابطة عليها كالدمار فتتحرك أساطيل مشتركة من أمريكا، وبريطانيا، وفرنسا، وهولاندا.. فتغزوها. وتدعم هناك مصالحها التجارية.

ولقد فتحت الهند بشركة بريطانية ... !!
 وفتحت مصر بأموال روتشيلد...!!
 بل إنه في عام "١٨٥٠" سيرت بريطانيا أسطولها الكبير الوقور الأفخم لمحاصرة اليونان من أجل ديون أحد المرابين الإنجليز ..!!
 إن كل فتوح أوروبا وغزواتها - كانت فتوح التجارة، وغزوات رأس المال .
 وكلما ازدهرت التجارة. ازدادت حاجتها إلى الحرب. فالازدهار التجاري، يسبب ازدهارا صناعيا.

ويزيد الإنتاج زيادة مبهظة تتطلب المزيد من الأسواق،
والمزيد من الخامات.. والأسواق والخامات. لا تباع عند
العطار (!) والظفر بها يتطلب الاستعمار، والاستعمار
وسيلته الحرب، والقوة، والسطو.

وهكذا ازدحم القرن التاسع عشر بالحروب التي
قادتها أطماع التجارة والربح .

فإذا أهلّ القرن العشرون، وجاءت الحرب العالمية
الأولى، أبصرنا بين يديها الأسباب التي هيأت نشوبها.
وعلى رأس تلك الأسباب منافسات التصدير، والأسواق،
والمواد الخام .

إن تراكم الإنتاج أنجب الأزمات، وأفرز الكساد..
وفي ضباب الكساد والأزمة، تتلاشى التجارة الصغيرة،
وتقع بين فكي التجارة الكبيرة، وتتربع على العرش
شركات الاحتكار، وينفسح المجال لملوك المال، وأقطاب
الربح.. وبين هؤلاء تقوم منافسة أخرى لكنها عارمة
القوى، حادة الأنياب، خطيرة النتائج. لأنها لا تتحرك

وحدها - بل تحرك معها الحكومات والجيوش وهنا تقوم الحروب.. وهنا قامت الحرب العالمية الأولى.. حين اصطدمت مصالح الشركات والاقتصاد بين الدول المتقاتلة على المنافع - المتنافسة على النهب!..!

وعلى الرغم من الكوارث التي أنزلتها بالبشرية، تلك الحرب فإن ملوك المال لم يزدادوا بها إلا نعمة.. وإلا اقتناعا بأن الحرب تنعش التجارة.. وهكذا لم يحاولوا أن يطامنوا من جشعهم حتى لا تتعرض البشرية لمحنة أخرى.. فساروا بالدنيا إلى كارثة الحرب العالمية الثانية! و بين يدي هذه الحرب أيضا تجمعت ظروف نشوبها، وعلى رأس تلك الظروف نفس الآفة، ضراوة الربح ورأس المال.

فألمانيا، أخذت صناعاتها تغزو الأسواق في تفوق ملحوظ وإنتاجها زاد ونما.. ونجاحها هذا ضاعف من حاجتها إلى المواد الخام لتصنع. وإلى الأسواق لتصدر، ومثل ذلك تماما - اليابان، وإيطاليا.

قبيل الحرب العالمية الثانية كانت بريطانيا ينقصها من المواد الخام اللازمة لكافة الصناعات أربع مواد لا غير.

بينما ينقص ألمانيا، ست وعشرون مادة.

وينقص إيطاليا، ثنتان وعشرون مادة .

وينقص اليابان، تسع عشرة مادة.

وهذه المواد التي تنقص تلك الدول الضاممة الطامعة -

من حديد، ونحاس، و صفيح، وفحم، وبتترول، ومطاط وقطن، وخشب، وصوف... الخ.

هذه المواد، توجد متفرقة في أقطار شتى من الأرض،

تستعمرها دول أخرى مثل بريطانيا، وفرنسا ..

فهل تغلق الصناعات في ألمانيا وإيطاليا واليابان،

أبوابها؟

هل يحنى ملوك المال في تلك البلاد رءوسهم

ويستسلمون؟

كلا... ولا بد من صنع وإن طال السفر..

وهكذا تأخذ ألمانيا "الرين واليسار" ثم تخطف النمسا وتشكوسلوفاكيا.. وتخطف إيطاليا الحبشة.. وتغزو اليابان الصين.

ولقد أعلن الدوتشى قبل غزو الحبشة أن إيطاليا فى أشد الحاجة إلى القطن والبن.. ولهذا ستذهب إلى الحبشة..

وفى هذا الوقت، كانت أمريكا تأمر زراع القطن فى بلادها أن يتلفوا أجزاء كبيرة من الأرض المزروعة قطناً حتى لا تتسبب وفرة المحصول فى خفض السعر.. وكذلك . كانت البرازيل، تلقى إلى جوف المحيط بملايين الأطنان من محصول البن حتى لا ينخفض سعره بسبب وفرته .

انظروا...!!

بلاد تتلف المحاصيل، لكثرتها ولكى تضمن سعراً أعلى وأخرى، تسوق أساطيلها وجيوشها لتستعمر بلاداً حراً تسد بإنتاجه جوعها إلى القطن والبن.. القطن الذى

يتلف فائضه في أمريكا..والبن الذي يغرق فائضه في
البرازيل...!!

وليس يقتصر وباء التجارة والرأسمالية على إشعال
الحروب، ونشر الاستعمار. بل هي قبل هذا تعطل حركة
التاريخ بمساندتها القوى الرجعية وتأييدها المطلق
للفاشية.

حدث هذا في إيطاليا عام ١٩٢٠ حين قام نصف
مليون عامل بالإضراب احتجاجاً على الظلم الواقع
بهم من أصحاب المصانع .

يقول نهرو في كتابه "لمحات من تاريخ العالم":
"وأخذ أصحاب المصانع يفكرون في خطة للانتقام"
"ولتخطيم الحركة العمالية والحزب الاشتراكي . ."
"وكان أول من فكروا بالاستعانة بهم، جماعة"
"من المغامرين بقيادة - بنيتو موسوليني - أطلقت
"على نفسها- الفرق الفاشية- وأخذ كبار الرأسمالين"
"وأبناء الطبقة البرجوازية الكبيرة يمولون هذه الفرق"

"الفاشية، ويحاولون استخدامها في مقاومة
الاشتراكية"

وحدث مثل هذا في ألمانيا كذلك .

يقول "نهرو" في نفس الكتاب :

"وقد نجح هتلر نجاحًا كبيرًا في الاحتفاظ بين يديه"

"بكل هذه التيارات على ما فيها من تناقضات . . ."

"واستطاع أن يجعل الطبقات الوسطى الفقيرة . . ."

"تتحالف مع أصحاب المصانع، وملاك الأراضي"

"الكبار"

"وسبب هذا، أن أصحاب المصانع أيدوا هتلر،"

"وزودوه بالمال لأنه كان رغم تظاهره بمقاومة . . ."

"الرأسمالية، يشكل أكبر عائق في طريق الاشتراكية"

"العلمية الصحيحة"

ومثل ذلك أيضًا حدث في أسبانيا.. فوراء الجنرال

فرانكو - كان أصحاب الإقطاع الذى قررت
حكومة الجبهة الشعبية تصفيته، يقفون ويتآمرون.. وكان
الرأسمال الأجنبى - البريطانى والفرنسى - يذهب فى تأييده
وتعظيمه مذهباً بعيداً. لأن المناجم الأسبانية الكبرى
كانت جميعها تستثمر برءوس أموال بريطانية وفرنسية.

ما مغزى هذه العجالة التاريخية التى سردناها..؟

هل نلغى التجارة..؟؟

هل نوقف نشاط المال، ورأس المال..؟؟

سؤالان وجيهان.. والإجابة عنهما آتية.. ولكن

لنذكر هنا.. أن أساليب التجارة ورأس المال.. تقف على

رأس الأسباب التى تمزق عالمنا.

ولنتقل الآن إلى آفة أخرى، هى بهذه وثيقة

الصلة.. وهى أيضاً لا تقل عنها ضراوة وفتكا.





من الحلف المقدس
إلى ميثاق الأطلسي



إذا بقيت الأخطاء دون تصحيح تعاقبت في تسلسل
حتمي لا مفر منه.
والخطايا، ينادى بعضها بعضاً، وكلما تجمعت خلق
تجمعها هذا ظروف نموها واستمرارها .
والتجارة في حد ذاتها. لم تكن خطأ ولا خطيئة..
ولكن طريققتها في العمل، وتحولها إلى قوة احتكارية
طاغية، وغازية، جعل منها خطيئة كبرى .
ولقد أنجبت الخطيئة سلالة طويلة من الأبناء
والحفدة.. وأكثر فلذاتها شراً، وضراً - الأحلاف..
وعبر التاريخ سار الوالد وما ولد.. سارت التجارة

والأحلاف ليفرضا على عالمنا. إرادة الشر والنزاع،
والحرب .

ولقد عرفت التجارة أهمية الأحلاف إبان الحروب
الصليبية أيضاً.

فالمدن الإيطالية التي كانت تتزعم الاقتصاد الأوربي،
والتي رأيناها تقف وراء الحروب الصليبية.. كان الخلاف
كلما نشب بينها، عاجلته بلباقة الحريص على المغنم
المشتركة. والمصير المشترك .

وسنكتفى هنا بملاحظة سير الأحلاف خلال الأعوام
المائة التي سبقت الحرب العالمية الأولى.. تلك التي بدأت
عام ١٨١٤ - إثر هزيمة نابليون ..

إن الدرس الذي نتلقاه عن تلك الأحلاف في الحقبة
المذكورة.. أعني منذ - ١٨١٤ - حتى يومنا هذا - هو
درس نافع وعظيم .

وسنرى كيف كان سير الأحلاف من عام ١٨١٤،
إلى عام ١٩١٤، يتجه حتماً إلى تلك الحرب الكبرى ،

بعد أن أشعل في طريقه إليها عشرات الحروب المحلية ...
سنرى كيف أن الحرب العالمية الأولى لم تعلن عام
- ١٩١٤ - .. وإنما أعلنت عام - ١٨١٤ -، ونشبت عام -
١٩١٤ - .

لقد اتجهت - أوروبا - في سُعار شديد إلى سياسة
الأحلاف بعد هزيمة - نابليون - وسارت الأحلاف جنبًا
إلى جنب مع الاحتكار الطامع .

بعد أن دخل المنتصرون على نابليون مدينة باريس -
قرروا، وكانوا روسيا - بروسيا - النمسا - بريطانيا، أنهم
اجتمعوا لتوثيق الأواصر التي تربط الحلفاء، ولحماية
السلام .

وفي مؤتمر - فيينا - الذي تلى اجتماع - شومون -
كادت أطماعهم المتصادمة تعصف بهم وبالمؤتمر .
وفي عام - ١٨١٥ - دعا "اسكندر الأول" قيصر
روسيا، إلى "الحلف المقدس" .. راجيًا أن يجيء هذا
الحلف تصحيحاً للموقف كله. وبداية لعهد جديد يقوم

على السلام والخير، وفي نفس الوقت يصون وحدة
الحلفاء الكبار الأربعة، لتزجر هذه الوحدة أي نابليون
آخر تنشق عنه الأرض ذات يوم .

وانعقد الحلف المقدس، ووقعته دول أوروبا، وتعهده
المشتركون فيه أن يكون رائدهم "العدل، والإحسان،
والسلام" ..

وعلت أهازيج البشائر، بأن القرن التاسع عشر،
سيكون قرن السلام والرشاد ..
فهل كان كذلك حقاً؟؟..

عجباً.. لقد جاء القرن التاسع عشر، أكثر القرون
ازدحاماً بالحروب.. وأكثرها إيغالا في الاستعمار..
وأكثرها تحدياً للعدل وللإحسان وللسلام !!..
فخلال هذا القرن ..

خاضت "بريطانيا" حروباً كثيرة في إفريقيا..
وحاربت إيران مرة.. وأفغانستان مرتين.. وخاضت ضد
الصين حربين.. وضد بورما ثلاث حروب.. وخاضت

هي وفرنسا وروسيا حرب القرم !.

وشنت فرنسا حروبا ظالمة في شمال إفريقيا،
واستولت فيها على الجزائر، ومراكش، وتونس.. وشنت
حرباً أخرى في إفريقيا الاستوائية، والهند الصينية،
واستولت عليهما..!

ونحاضت روسيا القيصرية ضد تركيا ثلاث
حروب.. وضد إيران ثلاث حروب أخرى.. وشنت..
على الصين حربا استولت فيها على - فيلاديفوسك -..!
وحتى إيطاليا، التي كانت تحتلها النمسا، لم تكد
تتحرر من مستعمرها حتى شنت هي الأخرى حربا ضد
الحبشة احتلت فيها - إرتريا..- وحربا ضد تركيا،
واستولت على - طرابلس -..!

ولم تشأ "بروسيا" أن تقف متفرجة، فحاربت
النمسا.. ثم تحرشت بفرنسا، وحاربتها، وأخذت ملكها
أسيراً، واستولت على الألزاس واللورين.. واستمرت
الحرب فنقلتها إلى الصين وإفريقيا..

وأدلت اليابان دلوها، فشنت على الصين حربا ..!
وعزّت على النمسا أن تفقد إيطاليا، وألمانيا.. فيممت
وجهها شطر البلقان، واشتبكت مع تركيا..!
هذه هي "حصيلة" القرن العشرين من السلام، ومن
العدل، ومن الإحسان... "!!!"
إن أوروبا التي صممت عام ١٨١٥، أن تمنع قيلم أى
بونابارت آخر يغزو ويفتح ويملاً الأرض دما وفسادا ..
أوروبا هذه.. تحولت كلها إلى معامل تفريخ تتنافس
في تفريخ "بونابرت" لا حصر لها...!!!
والآن، لننظر كيف حدث هذا، وكيف ملئ القرن
التاسع عشر بالحروب، وبالبغي ..
وقبل هذا، نسأل: لماذا تقوم الأحلاف..؟؟ إنها
قطعا لا تقوم لحماية الخير المشترك للناس جميعا.. إذ لو
كانت هذه غايتها، لانتظم الحلف جميع الدول، وجميع
الأمم.. وحلف من هذا النوع لا حاجة بالناس إليه لأن
منظمة دولية تلتزم قواعد الحق والعدل والقانون كفيلا

بتحقيق الخير المشترك للشعوب ..

ولكن الأحلاف تقوم بين جماعة يريدون الظفر

بغنائم مشتركة..

ولما لم تكن الدنيا، هي هذه الجماعة وحدها..

فسيقوم في بعض أركانها الأخرى لا محالة، جماعة

أخرى لها مصالح مشتركة، فتتظم في حلف آخر..

وهكذا..

وهذه الأحلاف تشد أزر البغي والسطو لأن الدولة

التي لاتقدر على البغي منفردة..تواتيها الفرصة حين تجد

لها حلفاء ونصراء .

ولعل النزاع المرير الذي قام بين "كليمنصو"،

و"ولسون" في مؤتمر الصلح نشأ عن إدراك "كليمنصو"

لهذه الحقيقة.. حقيقة أن فرنسا لم تهزم ألمانيا إلا بقرة

حلفائها الكثيرين، أمريكا، وبريطانيا، وروسيا، وإيطاليا،

وغيرها..

وهو غير متأكد من أن تتاح الفرصة لفرنسا مرة

أخرى...؛ فهؤلاء الحلفاء التقوا على منافع - لامبادئ..
وقد تتضارب المنافع غدا؛ فلا يتفقون ..

وهكذا صمم على إرجاء النظر في تشكيل عصبة الأمم كما يريد "ولسون" حتى ينتهوا أولا من تسويات الحرب، وحتى تحدد فرنسا غنائمها منها .

نقول: إن الأحلاف تقوم لتحقيق مآرب خاصة لمجموعة الدول المتحالفة. وهي بهذه المثابة لا تفرز سوى عداوات وريب. وتعرض على مقاومتها، وتحض على محاكاتها.. كما أنها بقيامها لحماية مصالح غير مشروعة، ومواقف عدوانية غير عادلة.. تتخذ غالبا نهجا مضادا لحقوق الإنسان .

وهكذا لم يكد "الحلف المقدس" يبدأ متوخيا المبادئ الخيرة، حتى عملت بريطانيا على إخفاقه، فرفضت توقيعه.. ثم عملت جاهدة لتحويله إلى حلف آخر باسم "الحلف الرباعي" أعضاؤه الدول الأربع نفسها.. ولم ينجل أصحاب هذا الحلف من أن يقرروا أن الغرض منه

هو "مقاومة المبادئ والحركات الثورية" ..!

مع أن المبادئ والحركات الثورية يومئذ كانت تعنى محاولات الأمم الصغيرة، والشعوب المستعبدة أن تتمتع بحريتها واستقلالها.. وتغادر مكانها كجليّة في تيجان الملوك والأباطرة الذين كانوا يستعبدون معظم شعوب العالم يومذاك.

وتحول "الحلف الرباعي" بدوره إلى حلف آخر هو "المحفل الأوربي" وفي هذا الحلف ظفر طاغية النمسا "مترنيخ" بجر أعضاء الحلف جميعهم إلى قمع كل الحركات الجماهيرية الساعية إلى الديمقراطية، والحرية .. وهكذا أثمر هذا الحلف الثورات في كل أوربا.. وهياً أسباب حروب كثيرة ستنشب في كل مكان، حتى تفضي آخر الأمر إلى الحرب العالمية الأولى .

في عام - ١٨٦٢ - نلتقى بـ "بسمارك" واقفا يخطب

في البرلمان البروسي ويقول:

"إن نخومنا الحالية كما أقرها مؤتمر فيينا غير ملائمة"
 "لنا.. وعلى بروسيا أن تستجمع قواها، وتحل"
 "مشاكلها بالدم والحديد"

وتبدأ فعلا جولة الدم والحديد. التي أنجبتها أحلاف
 فيينا وشومون، والحلف الرباعي، والمحفل الأوربي ..
 يبدأ بسمارك بالنمسا.. ويجد نفسه في حاجة إلى
 قوى تؤمن مستقبل الحرب بالنسبة له.. فيلجأ إلى
 الأحلاف - يحالف روسيا القيصرية ويحالف إيطاليا،
 ويضمن حياد فرنسا وبريطانيا.. ثم يضرب ضربه ..
 وتنتهي الحرب بفوز بسمارك.. فيولى وجهه شطر
 فرنسا ويهزمها هزيمة ساحقة ..

ويتلفت القيصر، فيرى أن بسمارك قد أحسن
 استغلال تحالفه معه.. وأنه يبطش لا بقوته وحدها.. بل
 بقوة الحلف الذي يربطه وروسيا.. فيقرر هو الآخر أن
 ينتفع بمزايا هذا الحلف.. وفعلا يتقدم ويعلن الحرب على
 تركيا .

وفيما بعد قُتبل إيطاليا الفرصة، فتهاجم هي
الأخرى تركيا، وتستولي على طرابلس ..

وينشأ حلف جديد، اسمه "حلف الأباطرة الثلاثة"
بين قيصر روسيا، وامبراطور النمسا، وامبراطور بروسيا.
وتتصادم المصالح بين روسيا والنمسا. فيتقوض
الحلف ويقوم مكانه حلف "ألمانيا - النمسا".
ثم يقوم حلف بين بريطانيا وإيطاليا.. تبارك انجلترا
احتلال إيطاليا لطرابلس.. وتبارك إيطاليا احتلال بريطانيا
لمصر..!!

وتنضم النمسا لهذا الحلف ..

ويحدث رد الفعل؛ فتسارع فرنسا وتبرم حلفا مع
روسيا.

وفي نفس الوقت تبرم اتفاقا سريا مع إيطاليا،
المشاركة في حلف مع بريطانيا والنمسا.. ويقوم هذا
الاتفاق السري على أن تحتل إيطاليا تونس، وتحتل فرنسا

مراکش..!!

وتفاجأ بريطانيا بخيانة حليفتها إيطاليا.. فتسارع إلى
مخالفة فرنسا.. وتبرم معها الاتفاق الودي المشهور عام -
١٩٠٤- ويقضى بموافقة بريطانيا على احتلال فرنسا
لتونس. واعتراف فرنسا بمركز بريطانيا في مصر .
وتطمع بريطانيا في مزيد من الغنائم والنهب..
فتبحث عن حلف جديد، ما دامت الأحلاف هي الطريق
الأمثل لهذا ..

وهكذا تنشئ مع روسيا حلفا عام -١٩٠٧-
يقتسمان به بلاد الأفغان، والتبت، وإيران !!..
وعند هذه النقطة يقف العالم كتلتين :
ألمانيا. إيطاليا. النمسا - في جانب
بريطانيا . فرنسا . روسيا - في جانب آخر
وفي هذين الحلفين تبلورت كل الأحلاف السابقة.
بما تنطوي عليه من غدر ولؤم ووصولية.. واقترب يوم
الفصل ..

وهكذا لم يطلع صباح ٢٨ يولية عام ١٩١٤، حتى كانت نواقيس الحرب العالمية الأولى تقرع مرجفة مزلزلة.

إن هذه اللقطة التاريخية التي سردنا فيها تسلسل الأحلاف ليست خالية من المغزى ..

وإن مغزاها لواضح مبين.. فهي ترينا كيف أن الأحلاف دائما أقرب الطرق إلى الحروب.. وكيف أنها تغرى بالحروب المحلية الصغيرة بين دولة وأخرى.. ثم لا تلبث حتى توقد نار حرب عالمية كبرى .

حدث هذا على النحو الذي أسلفنا ذكره بين يدي الحرب العالمية الأولى ..

وسرى الآن.. نفس الشيء يتكرر وتتكرر معه نتائجه من عام ١٩١٩ حتى قيام الحرب العالمية الثانية.

فعندما اجتمع ولسن، ولويدجورج، وكليمنصو في مؤتمر الصلح لم يختلف مؤتمرهم كثيرا عن مؤتمر "فيينا" الذي انعقد قبلئذ بمائة عام بين اسكندر الأول،

وفردريك، ومترنيخ، وكاسلريه..!
 ولم تشفع عظام خمسة وعشرين مليوناً من ضحايا
 الحرب العسكريين والمدنيين.. لم تشفع لدى السادة
 المجتمعين ليحسنوا الإفادة من المحنة وليضعوا أسس سلام
 وعدالة.. بل إن "ولسن" نفسه بروحه الطيبة الخيرة.
 وبمبادئه السامية العادلة، صار موضع مناورات المؤتمـر،
 وتندر المؤتمرين، وهدفا لإساءة حلفائه، سيما كليمنصو
 العنيد..!

وراحت أوروبا تنشئ أحلافاً تلو أحلاف مهينة
 الأسباب لحرب عالمية أخرى .

فسمعنا عن اتفاقية "سايكس بيكو" .. واتفاقية
 "لويدجورج - كليمنصو" بشأن سوريا ولبنان ..
 وسمعنا عن حلف مناهضة الشيوعية بين ألمانيا
 واليابان - عام "٣٨".

واتفاق الجنرلمان.. بين إيطاليا وبريطانيا - عام
 "٣٨".

والحلف الدفاعي الهجومي بين ألمانيا وإيطاليا
 عام "٣٩" ثم محور ألمانيا - إيطاليا - اليابان ...
 وسمعنا عن - الحلف البريطاني - التركي .
 والحلف البريطاني الفرنسي - التركي ..
 ثم حلف ألمانيا والاتحاد السوفيتي .

وكانت هذه الأحلاف جميعا تنطوي على ظاهرة
 محتومة هي - الإعداد للحرب ..

وبسبب هذه الأحلاف تمت جميع الحروب وغزوات
 الخطف التي سبقت الحرب العالمية الثانية، وكانت سببها
 الأول.

فخطف إيطاليا للحبشة، وغزو اليابان للصين،
 وخطف هتلر للنمسا، وتشكوسلوفاكيا، وبولندا، كل هذا
 تم في ظل هذه الأحلاف .

وكما حدث قبيل الحرب الأولى من تركز الأحلاف
 في معسكرين متقابلين. في كل معسكر تقف دول كبرى
 تجاه دول كبرى نظيرها.. حدث نفس الشيء قبيل

الحرب العالمية الثانية.

فرأينا ألمانيا، وإيطاليا، واليابان - في جانب
وبريطانيا، وفرنسا، ثم أمريكا فيما بعد - في جانب
آخر..

وكان لابد من حرب عالمية ثانية ..
وفعلا - قامت الحرب ...!!
وكان حصادها فادحا..
وعلى جبل عال من : -
اثنين وثلاثين مليونا - قتلوا في معارك الحرب .
وعشرين مليونا - قتلوا في الغارات .
وست وعشرون مليونا - قتلوا في معسكرات
الإبادة.

وثلاثين مليونا - من المشوهين .
فوق جبل عال من جثث هؤلاء الضحايا.. التقى
زعماء العالم، وتناقشوا، واجتمعوا..
فهل كانوا أكثر توفيقا وسدادا من الذين سبقوهم

في مؤتمر "فيينا" ثم في "مؤتمر الصلح"؟؟..

إذا كان التسابق على الأحلاف، هو المعيار الذي نقيس عليه سفه السياسة وطيشها. فكم نحن مضطرون إلى الاعتراف بأن رصيد السياسة من السفه ومن الحمق لم تمسه فواجع الحرب العالمية الثانية بسوء ولا نقصان...!!!"

أجل.. لقد بدأت جولة أخرى لسياسة الأحلاف وكان عشرات الحروب الصغيرة، والحربين العالميتين الكبيرتين.. لم تكن كافية، ولا تزال غير كافية لنشيدان حياة بلا حروب، وبلا أحلاف!؟!

• في ١٢ مارس عام ١٩٤٨. ألقى "ترومان" رئيس الولايات المتحدة يومئذ خطاباً أعلن فيه أن السياسة الخارجية للولايات المتحدة، تتوخى مساعدة كل أمة تدافع عن نفسها ضد أي تدخل..

• وبعد هذا الخطاب بخمسة أيام لا غير(!) وقع في

بروكسل.. حلف دفاعي بين فرنسا، وإنجلترا، وهولندا،

وبلجيكا، ولكسمبورج..

• وبعد توقيع الحلف بساعات (!) وقف "ترومان" يخطب أمام الكونجرس مباركاً الحلف وأهله ومعلنًا أن "هذا التطور يستحق من الولايات المتحدة المساعدة الكاملة" ..

• وبعد هذا الخطاب بأيام اقترحت لجنة الشئون الخارجية بالكونجرس الأمريكي اشتراك أمريكا في ميثاق الضمان الجماعي لحماية السلام العالمي (!)...

• وبعد ذلك بأيام، صار الاقتراح قراراً من قرارات الكونجرس وأعطى هذا القرار حكومة الولايات المتحدة حق "التوسع في إنشاء التنظيمات الإقليمية" ..؟

• وأخيراً... وفي ٤ إبريل ١٩٤٩ ولد الحلف الكبير "حلف الأطلسي" .. ووقعته أمريكا وكندا، وفرنسا، وبريطانيا، وإيطاليا، وبلجيكا، وهولندا، والدانمارك، ولكسمبرج، والبرتغال، والنرويج، وإيسلندا..

وكما أن معظم الأحلاف التي قامت في ظل "عصبة

الأمم المتحدة" كانت تنص على أنها تعمل داخل مبادئ العصبة وميثاقها.. فإن "حلف الأطلسي" والأحلاف التي ستقفو أثره.. لن تنسى أن تجامل "هيئة الأمم المتحدة" بتلك العبارة المهذبة .

"يؤكد أعضاء هذه المعاهدة إيمانهم بأغراض ميثاق الأمم المتحدة ومبادئه (!)"

وكما أن معظم الأحلاف التي أشعلت الحروب السابقة، كانت تنص على أنها دفاعية.. كذلك أحلاف ما بعد الحرب العالمية الثانية، تقسم بأغلظ الأيمان أنها دفاعية"!!

إن حلف الأطلسي. جاء امتدادا لسياسة الأحلاف السالفة.. امتدادا لمعاهدة "شومون"، و"الحلف المقدس"، و"الحلف الرباعي" وما جاء بعدها من أحلاف . ولقد فتح الباب لأحلاف أخرى قام بعضها مقاومة له.. وقام بعضها الآخر تعصيذا له ..

فالاتحاد السوفيتي، ودول الكتلة الشرقية، رأت في

هذا الحلف تحديا لها.

وفي ٣١ مارس عام ١٩٥٤، تلقت حكومات أمريكا، وبريطانيا، وفرنسا مذكرة من الاتحاد السوفيتي يطلب فيها الموافقة على انضمامه إلى حلف الأطلسي..

والاتحاد السوفيتي يعلم سلفا، أن نصوص هذا الحلف، لاتعطيه الفرصة التي طلبها.. ومع هذا تقدم بطلب الانضمام الذي كان نصيبه الرفض طبعاً.. ولقد أخرج هذا الرفض حلف الأطلسي وأعضاءه أيما إحراج.. وفي ٢٣ أكتوبر عام ١٩٥٤، وافق أعضاء الحلف على ضم ألمانيا الغربية إليه ..

وألمانيا. عدو لدود للاتحاد السوفيتي ولأوروبا كلها - وهي دائما مصدر الخطر الأول لروسيا ولأوروبا.. هنا لك دعت روسيا لمؤتمر "الأمن الأوربي" ..ولكنه أخفق بسبب إعراض معظم الدول المدعوة إليه، ورفضها المشاركة..

وهنا.. وفي ١٤ مايو عام ١٩٥٥، ولد حلف كبير

آخر على غرار حلف الأطلسي.. هو "حلف وارسو"! بين الاتحاد السوفيتي، وجميع دول أوروبا الشرقية والديمقراطيات الشعبية.

وفيما بعد، يقوم حلف البلقان..، والحلف التركي الباكستاني، والحلف العراقي التركي، وحلف بغداد.. الذي أسموه أخيراً "الحلف المركزي".. وحلف جنوبي شرقي آسيا.. وتهيأ الأمور اليوم لحلف البحر الأبيض المتوسط.. هذا عدا المحالفات الكثيرة التي تقوم بين الدول بصورة ثنائية .

ما معنى هذا ..؟

معناه أن سياسة الأحلاف والتكتلات، لاتزال تحتل بؤرة التفكير ..

ومعناه أيضا أن خطر الحرب والانقسام والدمار، يعود في صحبة هذه الأحلاف ليسلب العالم سكينته وطمانينته .



أرْبَابُ الأَرْضِ !..



على صعيد السياسة العالمية، لم يكن رأس المال، والأحلاف يعملان وحدهما لإفساد العلاقات الإنسانية، وتدميرها.. بل كان هناك معهما، التراع على السيادة .. وفي عصور خلت، كان التراع على السيادة محلياً، ومحدوداً بعض الشيء.. يوم كان العالم عوالم شتى متباعدة .

أما اليوم، وقد امتزج عالمنا، واقتربت مسافاتنا، فالسيادة الآن تريد أن تشملها جميعاً.. ومن ثمَّ فالتنازع على السيادة اليوم خطر وعنيد.

من الدولة التي تسود..؟ من الدولة التي تكون لها

الكبرياء فى الأرض..؟

هذان السؤالان مهّدا دوماً، وفى كل العصور لقيام ما نسميه بالدول الكبرى.

والحرص على بلوغ هذا الوصف. سبب كثيراً من الشقاء لعالمنا ..

من أجل هذا تتحتم على البشرية الحديثة التى تنهض اليوم لبناء نفسها، أن تشيّع خرافة "الدول الكبرى" إلى القبر وتزف أرباب الأرض إلى مصيرهم المحتوم، وأن يعلن العالم نفسه، عالماً بلا أرباب.

ويبدأ هذا بأن نعرف الفلسفة التى تقوم عليها نظرية "الدول الكبرى" ..

هناك فى تاريخنا البعيد، والقريب، والمعاصر، تعبير سياسى مهذب اسمه "حفظ التوازن" ..

ولحفظ التوازن هذا، فى التاريخ السياسى لعالمنا طرائف وذكريات !.

"فبسمارك" برر كل حروبـه، وغزواته بحفظ

التوازن...!

ومترنيخ ساد أوروبا بطغيانه أكثر من ربع قرن،
وفرض عليها سيادة النمسا وربوبيتها باسم "حفظ
التوازن"...

وبريطانيا انتهت امبراطورية لا تغيب عنها الشمس
باسم "حفظ التوازن"...

وفرنسا ملأت الأرض دمًا باسم "حفظ التوازن"..
وكانت كل دولة كبرى تنتقل من حلف إلى حلف،
وتعادي اليوم صديقها بالأمس، وتصادق غدًا عدوها
اليوم - لا باسم النفاق والوصولية، والمنفعة.. بل
باسم "حفظ التوازن"...

وحين طرد العرب من بلادهم وديارهم، وأخرجوا
من أرزاقهم وأقوات عيالهم في فلسطين.. تقدمت دول
كبرى وتعهدت باحترام هذا الوضع!" باسم "حفظ
التوازن"...

وحين منع الغرب عنا أسلحة دفعنا ثمنها. برر هذا

المنع بـ "حفظ التوازن" ..!

ماذا يعنى "حفظ التوازن" هذا ..؟

إنه يعنى الاحتفاظ بحقوق الزعامة، وحقوق السيادة،
وحقوق التفوق والتأله، لدول تريد أن تعيش دائماً فوق
الدول، وفوق الجميع ..

وكل دولة كبرى تجعل شعارها "لا مكان لاثنيين
هنا" .. وهنا فى رأيها تعنى العالم .. تعنى أرض الله
الواسعة.

ولهذا نجد الاتفاق بين دولة كبرى، وأخرى مثيلها،
كان يقوم فى التاريخ كله على أسس تبعد تمام البعد عن
المبدأ .. وعن العدل ..

ونجد أيضاً أن معظم ما حاق بالعالم عبر التاريخ
كله، من مصائب وكوارث، تم على أيدي دول أسكرها
وأعماها الشعور المتفاقم بالسيادة والاستعلاء .

والدول الكبرى، هى التى أرهقت بسياسة الأنانية
والكذب عالماً مسكيناً.

لقد اجتمع في مؤتمر "فيينا" الذي أعقب الحروب
البونابارتية - أربعة كبار - .

هم: روسيا، بروسيا، النمسا، بريطانيا ..!
واجتمع في مؤتمر الصلح الذي أعقب الحرب العالمية
الأولى - ثلاثة كبار - ..

هم: الولايات المتحدة، بريطانيا، فرنسا ..!
واجتمع غداة الحرب العالمية الثانية - أربعة كبار ..
أمريكا - روسيا - بريطانيا - الصين - ..!

أما الأربعة الكبار الذين اجتمعوا في مؤتمر فيينا، فقد
اقتسموا العالم قسمة، أشعلت الثورات والحروب في كل
مكان .. بسبب إصرارهم على امتيازاتهم الظالمة،
وبسبب ضربهم بحقوق الدول الصغرى عرض
الحائط .. ومن الطريف أنهم قالوا في ديباجة اتفاقهم
المكتوب يومئذ، إنهم يفعلون هذا "حفظاً للتوازن
الدولي" ...!

وأما الثلاثة الكبار الذين اجتمعوا غداة الحرب العالمية الأولى فقد تنكروا لكل حقوق الإنسان.. أو بتعبير أكثر أمانة وصدقا - نقول "إن اثنين منهم هما بريطانيا وفرنسا، تنكرتا لكل ما هو حق، وسار سلوكهما. وكأنهما في مؤتمر حرب - لا مؤتمر صلح . والحرب التي كانتا تجلسان فوق كومة عالية من أنقاضها. وضحاياها، لم تلهمهما حكمة وعدلا، فوقفتا توزعان العالم من جديد، وضاع في ضجة أطماعهما صوت حليفهما "ولسن" الذي حاول عبثاً أن يحمي حقوق "الإنسان" وينقذها من أنياب حليفه الكبيرين.. وكان عاقبة مسعاه، وجهود بلاده في الحرب، أن تحده "كليمنصو" وقال له، وهو ضيف عليه في بلاده فرنسا..

"إذا لم توافق ياسيدى على ما نريده، فإنك تستطيع"

"أن تعود إلى بلادك.. !!!"

وانتهى مؤتمر الكبار الثلاثة نهاية مشاهمة لمؤتمر الكبار

في فيينا..

وأما الكبار الذين اجتمعوا غداة الحرب العالمية الثانية؛ فقد بدا بأسهم بينهم شديداً.. ولم يستطيعوا وهم يخططون عالم ما بعد الحرب، وينشئون "مجلساً للأمن" يحمى مصير العالم.. لم يستطيعوا أن يتخلوا عن كبريائهم، فابتدعوا ما أسموه "حق الفيتو"..

ولمن حق الفيتو هذا..؟؟

إنه للكبار وحدهم..

ولقد حدث أن استعمل "الفيتو" لنقض قرارات ظالمة، وأنقذ استعماله بعض الأمم الصغرى من مؤامرات كانت تحاك لها..

ولكن حدث أنه كذلك استعمل، ويمكن أن يستعمل لدعم مراكز الوثوب والعدوان التي تخص بعض الدول الكبرى.

ومهما يكن من شيء، فإن عجز الدول الكبرى على أن تلتقى في غير ريبة ودخل، هو الذي حرم العالم من أن

تخلُص له إحدى مؤسساته الكبرى من مثل هذه القيود المعوقة العجيبة.

إن إحساس دولة ما بأنها كبرى.. وحرصها على أن تظل كذلك يحضها دوماً على الاحتفاظ بمزايا هذا اللقب وهذا الوضع.

ولما كان وجود دول كبرى، لا يتأتى إلا إذا كان هناك دول صغيرة!" فإن ذلك يعنى لا محالة قيام تمايز مستمر وتفاوت دائم بين الكبرى والصغرى ..

ويعنى كذلك دعم الشروط التاريخية التى تستبقى الدول الصغيرة صغيرة.. لتظل معالم الامتياز والتفوق من نصيب الدول الأخرى الكبرى !..

ولنسأل الآن سؤالاً :

ما هى الاعتبارات التى تجعل الدول الكبيرة كبيرة..؟

إن الإجابة عن هذا السؤال، توضح لنا المضمون

السياسى لاصطلاح "الدول الكبرى".

وأمامنا مثال كبير الدلالة يصلح أن نبدأ به الإجابة،

بل يصلح أن يكون هو الجواب .

فالصين الوطنية، التي كان يرأسها " شيانج كاي شيك" كانت إحدى الدول الكبرى غداة الحرب العالمية الثانية فهل كان لها من خصائص الدولة الكبرى شيء، حتى استحققت هذا الوضع..؟

كلا ..

لم يكن لها جيش قوى، ولا أساطيل ..

لم يكن لها صناعات، لا خفيفة ولا ثقيلة ..

لم يكن لها موارد الدولة الكبرى ..

وشعبها، كان متخلفا، وأميا.. عشرة في المائة منه

هم الذين يقرءون ويكتبون ..

وأما الحكومة، فقد شاع فيها من الفساد، والانحلال

ما جعل كبار القواد الأمريكيان أنفسهم يصفونها

بأقذع الأوصاف.

فكيف إذن كانت إحدى الدول الكبرى..؟

لأنها خاضت الحرب في صف الديمقراطية..؟

هناك دول كثيرة خاضت الحرب مع الديمقراطية،
وكانت حكوماتها أكثر ولاء للديمقراطية وللحكم الصالح
من حكومة السيد.. "كاي شيك" .. ثم لم تصر دولا
كبرى.. بل لم تستطع أن تحتفظ بحقوق الدول
الصغرى..!!

على أن للمسألة بقية جديرة بإعمال الفكر .
فالصين الوطنية هذه اختفت ذات يوم، وانكشفت
في جزيرة "قرموزا" ..
ونهضت "صين" أخرى تنتظم ستمائة مليون
إنسان لها جيش قوى.. لها صناعات كبرى، خفيفة،
وثقيلة.. لها زراعة حديثة، وإنتاج هائل ..
ومع هذا، فهي لم تأخذ مكانها بين الأربعة الكبار
فحسب، بل وحرمت من الحق الذي تتمتع به دويلات
لا يزيد تعداد أهلها عن ربع مليون نفس !..
أجل حرمت الصين من أن تكون عضواً في هيئة
الأمم المتحدة !!!..

فلماذا..؟؟

لأنها شيوعية..؟؟

في هيئة الأمم المتحدة دول شيوعية.. بل فيها جميع

الدول الشيوعية ..

لماذا إذن..؟؟

هنا يبرز "حفظ التوازن" بمضمونه الخبيث..

وهنا يتجلى المفهوم الصحيح لاصطلاح "الدول

الكبرى" كما تفهمه وكما تريده بعض الدول الكبرى .

فالصين الشعبية، أدخلت بحفظ التوازن الاقتصادي

للولايات المتحدة ..

والصين القوية، أدخلت حفظ التوازن السياسي في

آسيا بالنسبة للولايات المتحدة أيضاً..

وإذن، فليس جزاؤها أن تحرم صفة الدولة الكبيرة

فحسب.. بل أن تحرم أدنى حقوق وجودها السياسي فلا

تكون عضواً في هيئة الأمم التي تضم جميع الأمم !..

منذ القرن التاسع عشر، وأمريكا تحافظ على الصين،
وتدفع عنها كل غزو.

وحين نطالع تاريخ السياسة الخارجية للولايات
المتحدة في ذلك القرن وما بعده، تستوقفنا ظاهرة هامة
هى إصرار الولايات المتحدة على مقاومة كل محاولة
للسيطرة على دول أمريكا الجنوبية.. وعلى الصين ..

وهذا الموقف واضح بالنسبة لأمريكا اللاتينية،
باعتبارها امتدادا طبيعيا للوحدة الأمريكية الشاملة ..

لكن ما سر هذا الاهتمام العظيم بالصين ..؟
أجل.. لقد رُسمت السياسة الأمريكية فى آسيا على
أساس حفظ الصين من كل تدخل.. وعلى أساس
الإجهاز على اليابان كدولة متفوقة صناعياً وعسكرياً..!!
فلنحاول أن نفهم هذا اللغز العجيب ..

إن الصين سوق هائلة إذا أُحسن إنعاشها وإذا ظلت
بعيدة عن الارتباط بمُصدِّرين آخرين مثل بريطانيا وفرنسا
مثلا حتى يأتى دور أمريكا.. فان ذلك يكون خيراً

عظيماً للاقتصاد الأمريكي ..

واليابان دولة أسيوية، ومتاخمة للصين فإذا نهضت
عسكرياً وصناعياً.. سبقت أمريكا إلى هذه السوق
وحرمتها منها..

هذا من جانب ..

ومن جانب آخر.. فأمريكا لا تقبل أن تقوم في
المحيط الهادى فى الشرق الأقصى - أمريكا أخرى -
أسيوية.. تضارعها أو تكون يوماً ما مصدر خطر عليها
سواء كان هذا الخطر عسكرياً أم اقتصادياً .

ومن هنا، قبلت، بل عملت على أن تكون صين
"كاي شيك" دولة كبرى.. مع فقدانها لكل خصائص
الدولة الكبرى.. ورفضت أن تكون الصين الشعبية مجرد
عضو فى هيئة الأمم، مع تمتعها بمعظم، بل بكل خصائص
الدول الكبرى ..!

وبقيام نظام اشتراكى فى الصين، أفلت من التجارة

الأمريكية ستمائة مليون زبون .

أليس هذا كافيًا لفقدان التوازن.. وكافيًا بالتالي
لاضطهاد الصين إنقاذًا لما يمكن إنقاذه من "حفظ
التوازن" ...؟؟!!!

هناك صحفي أمريكي شهير اسمه "ارنست لندي"
كان وثيق الصلة بالبيت الأبيض أيام "روزفلت".
ولقد كتب يقول :

"لقد كان المستر روزفلت يذهب دائماً إلى أن الصين "

"- يقصد الصين القديمة - يجب أن تعامل كدولة . . . "

" من الطبقة الأولى وأنها ستكون في مدى جيل . . "

"أو جيلين من دول الطبقة الأولى بالفعل"

ومعنى هذا الكلام من روزفلت، أن الولايات

المتحدة كانت تبني تقديرها على أن الصين ستظل بحاجة

إليها وإلى صناعاتها وإنتاجها مدى جيل أو جيلين .

ولكن ما حدث عام ١٩٤٩، من اختفاء آخر ظلال

الصين القديمة، وقيام حكومة اشتراكية في الصين كلها

خيب الآمال.. ودعا أمريكا إلى شد زناد حفظ التوازن

شدا غير مأمون العاقبة.

ويمكن أن نلتمس تفسيراً آخر لموقف أمريكا من الصين واليابان.. فنقول: إنها ناهضت اليابان لعدوانها ونزعاتها الاستعمارية.. وإنها عاشت تدفع عن الصين كل غزو خارجي ثمشياً مع مبادئها الإنسانية التي خلفها لها واشنطن، ولنكولن، ومونرو، وولسن ..

أقول: يمكن أن نلتمس مثل هذا التفسير، بل بودننا أن نلتمسه، لو تستطيع الولايات المتحدة أن تقدم تفسيراً معقولاً لموقفها من الصين الشعبية اليوم.. وإبطالها كل محاولة لضمها إلى هيئة الأمم المتحدة .

* * *

نحن لا نكتب هذا للتجريح.. ولا يخطر ببالنا ونحن نسطر كتاباً يهتف بالإخاء الإنساني أن نخط كلمات تحمل الضغن أو تريد الإساءة ..

ولكن مواجهة الوقائع التاريخية أمر ضروري لكل محاولة صادقة تريد إخراج عالمنا من أحقادته وخلافاته .

لقد كان ينبغي بعد قيام "هيئة الأمم المتحدة" ألا يبقى في العالم سوى دولة كبرى واحدة، هي "الأمم المتحدة" نفسها.

لست أعني أنها ستتحوّل إلى دولة، بكل مقومات الدولة.. بل أعني أنها كمنظمة، يجب أن تأخذ وحدها المكان الأول والأعلى ويجب أن تنتقل إليها كافة حقوق السيادة العالمية، لتقترب بنا من أيام الخلاص .

أما أن تقوم "أمم متحدة" .. ثم تنهض إلى جوارها، بل ومن فوقها "دول كبرى" فإن مصالح هذه الدول الكبرى ستفرض نفسها على هيئة الأمم، ولقد حدث هذا عشرات المرات.

فالأمم المتحدة - عجزت عن وقف اغتصاب فلسطين وتشريد أهلها؛ لأن "دولاً كبرى" أرادت هذا..!
والأمم المتحدة - عجزت عن إفساح مكان لستمائة مليون صيني؛ لأن "دولاً كبرى" أرادت هذا..!
والأمم المتحدة - لم تمنع ضرب كوريا.. بل ساهمت

فيها لأن "دولا كبرى" أرادت هذا ..!
والأمم المتحدة - لم تستطع حتى اليوم أن تمنع سباق
التسلح؟ لأن "دولاً كبرى" تريد هذا ..!
ليس يخطر ببالنا أن نُضَائِل من قيمة الأمم المتحدة
بسبب هذا العجز.. ولسنا ننسى المواقف الجليلة الباهرة
التي أملت فيها مشيئتها..
ولكننا ندرك أن خضوعها - أحيانا - لتأثير بعض
الدول الكبرى، يعتاق الكثير من جهودها البار، ويعطل
الكثير من رسالتها الجليلة.
وهذا ما نعيه وما نحاول دحضه عنها.

وثمة خطر آخر يفضى إليه قيام دول كبرى.. ذلك
هو: التسابق في التسلح..
يجب أن ندرك جيداً - أن المؤتمرات غير كافية في
وقف التسلح.. فالتسلح مقدماته التي تجعل منه نتيجتها
المحتومة.. ومن هذه المقدمات وجود نظام عالمي يسمح

بقيام "دول كبرى" ..

فعل رأس خصائص الدول الكبرى - يقف التفوق
العسكري.

وكل دولة تريد أن تكون كبرى، تعلم علم اليقين
أن ذلك رهن بتفوقها في أسلحة الفتك، وبناء الأساطيل،
وإعداد الجيوش.

هذه بديهة لا تحتاج إلى بيان .

ولقد عبر عنها أصدق تعبير "ونسن تشرشل" في كتابه
"الأزمة العالمية" حيث يصف زيارته لبورتلاند، وانبهاره
بسفن الأسطول البريطاني هناك :

يقول "تشرشل":

"على هذه السفن العظيمة، رأيت شوكة الامبراطورية"
"البريطانية وجلالها، وسيادتها، وقوتها."
ثم يقول :

"افتحوا صمامات البحر.. ودعوا هذه السفن تغرق . . ."
"تحت الماء .. وفي بضع دقائق .. في نصف ساعة . . ."

"على الأكثر ، يتغير وجه العالم ، وتتلاشى"

"الامبراطورية البريطانية كحل .. ، وتتحطم قوة . . ."

"سيده البحار"

وعبر عنها :هتلر" حين قال :

"يجب أن نسبق العالم كله في التسليح إذا أردنا أن . . ."

"نحقق عظمة الأمة الألمانية"

وعبر عنها "موسوليني" بكلمته المشهورة التي ألقاها

من فوق "فوهة مدفع" .. وهى :

"الويل للأمم غير المسلحة"

والتاريخ يمدنا بكل الوقائع والشواهد التي تقنعنا بأن

قيام "دول كبرى" لا يمكن أن ينفصل بحال عن التسابق

الجنوني في التسليح..

بعد أن وضعت الحرب العالمية الأولى أوزارها —

عرض "ولسون" نقاطه الأربع عشرة المشهورة.. وكانت

النقطة الثانية منها - حرية البحار - ووقفت بريطانيا

تنافسها طويلا. مما اضطر مستشار ولسن أن يعلن أن

الولايات المتحدة لن تسلم عن طيب خاطر بسيادة بريطانيا على البحار.. كما أنها لا تسلم بسيادة ألمانيا في البر، وإذا أصرت بريطانيا على سيادة البحار؛ فإن أمريكا ستبنى أسطولاً ينتزع السيادة منها ...

أبلغت حكومة لندن هذا التوضيح؛ فثارت ثائرتها، ووقف رئيس وزرائها "لويد جورج" يقول :
 "إن بريطانيا العظمى ستنفق آخر جنيه لديها للاحتفاظ"
 "بأسطول يفوق أسطول الولايات المتحدة . . أو أى "
 "دولة أخرى، وليس فى وسع أية وزارة بريطانية . . ."
 "أن تبقى فى الحكم يوماً واحداً . إذا هى اتخذت . . ."
 "موقفاً مغايراً"

إن أمريكا - الدولة الكبرى - يجب أن يكون لها
 أسطولها الكبير وعتادها الكبير ..
 ومن ثم سارعت فى غير كلل وفى غير بخل ، لبناء
 الأساطيل وإنتاج العتاد ..

واليابان ، - الدولة الكبرى - يجب أن يكون لها
أسطولها، وعتادها ..

وهكذا سارعت هي الأخرى تسابق بريطانيا نفسها
حتى صار لها أسطول يماثل أسطولها .

وفي عام - ١٩٣٨ - ألقى رئيس الاتحاد السوفيتي
"كالينين" خطابا في اجتماع عمال السفن بمدينة
"ليننجراد" قال فيه ..

"حتى اليوم، لم تتفوق، دولة على بريطانيا ويجب . . "

"علينا أن نتفوق عليها "

"إن إنجلترا ، أقوى بلد رأسمالي ونحن أقوى بلد . . "

"اشترأكي إننا سندخل في منافسة مع أقوى الدول "

"الرأسمالية. وكل منها يمتلك أساطيل كبرى "

"فعلينا أن ننشئ أسطولا يتفوق على أساطيلها . . "

" جميعاً "

وأعلن مولوتوف :

"أن الدولة السوفيتية القوية ، يجب أن تملك . . "

"أسطولاً بحرياً جديراً بقضيتها الكبرى وبمصالحها"
 وقام "الاتحاد السوفيتي" فعلاً بإنشاء وزارة
 للأسطول.. ولم يطل هلال عام ١٩٣٩ حتى كانت
 روسيا تملك من الغواصات أكثر مما تملك ألمانيا، واليابان
 معاً..

لقد فرضت تبعات التفوق نفسها على الدول
 الكبرى جميعاً.. فأمريكا، وبريطانيا، وفرنسا، وألمانيا،
 وإيطاليا، واليابان.. تتنازع الصدارة والسيادة، ومقتضى
 هذا أن تحرز كل منها أقصى تفوق عسكري ممكن..
 والاتحاد السوفيتي الذي يقف يومئذ وحده تجاه كل
 هذه الترسانات الكبرى، يجب أن يحرز أقصى تفوق
 عسكري ممكن...؟؟

وبهذه الطريقة ذهب، ولا يزال يذهب من
 الأموال ما لو أنفق سدسه على تعمير العالم، لجعل من
 أرضنا هذه فردوساً بهيجاً..!

إن من المؤسف حقاً، أن نتقبل نظام "الدول

الكبرى" كما لو كان ضرورة تاريخية.. وأن نسكت عنه، كما ما لو كان خيراً وبركة.

ونحن لا نسكت عنه فحسب؛ بل نحاول تنميطه وتضخيمه بيناء كتل تسيطر على كل منها دولة كبرى. لقد أراد كاتب أمريكي كبير هو "والتر ليمان" أن يعالج السلام العالمي، فدعا إلى تقسيم العالم إلى جماعات ومدارات ..

ففي كتابه "الولايات المتحدة وغاياتها من الحرب"، وقد نشر له ملخص كامل باللغة العربية، يدعو "ليمان" إلى إنشاء "جماعة المدار الأطلسي"، و"جماعة المدار الروسي"، و"جماعة المدار الصيني" ..

ولقد اقتنعت حكومة الولايات المتحدة بدعوته، وأنشأت "حلف الأطلسي".

وهو يرى أن صلات الود والتعاون بين الجماعات الثلاث، أو المدارات الثلاث، مدار الأطلسي، والمدار الروسي، والمدار الصيني.. كفيل بتوطيد أركان السلام.

وهو يصرح كذلك بأن مدار الأطلسي ستتزعمه
دولة كبرى هي أمريكا ..

وتتزعم المدار الروسي دولة كبرى هي: روسيا .

وتتزعم المدار الصيني دولة كبرى هي: الصين .

ولا ندري: هل لا يزال عند رأيه بشأن "المدار

الصيني" بعد قيام الصين الشعبية، أم لا..؟! "!

مثل هذا التفكير الذي أعلنه أكبر كتاب أمريكي

السياسيين. والذي يؤثر تفكيره في السياسة الخارجية

للولايات المتحدة تأثيراً ملحوظاً... مثل هذا التفكير

لا يزال يسيطر على الإدراك السياسي لكثرة كاثرة من

سكان الأرض. وليست خطورته فيما ينطوي عليه من

خطأ فحسب، بل وفي إضعاف الثقة بالمنظمات العالمية

التي تحاول البشرية عن طريقها أن تضع حداً لماسيها

ومصائبها .

ففى ١٥ يونيه عام ١٩٤٤، صرح الرئيس

"روزفلت" أنه يعتمد فى صيانة السلام على:

"قوة مادية منظمة لهيئة عالمية تسيطر عليها الدول الكبرى...!!"

وكانت الدول الكبرى يومئذ هي: الولايات المتحدة - والاتحاد السوفيتي - وبريطانيا - والصين الوطنية ..

وصرح "روزفلت" يومها بأن الدول الكبرى التي ستسيطر على الهيئة العالمية، تكون بمثابة "بوليس السلام" .. وأما بقية أمم العالم، فهي الشعب، أو الجمهور الذي ينظمه هذا البوليس !..

وقبل هذا بعام واحد - أعني عام ١٩٤٣ - اقترح وزير بحرية أمريكا لصيانة سلام العالم، أن تقسم أمريكا وبريطانيا بحار الدنيا ..!"

يتولى الأسطول الأمريكي حراسة غربي المحيط الأطلسي، والمحيط الهادي بأسره ..

ويتولى الأسطول البريطاني حراسة المحيط الهندي، والبحر الأبيض المتوسط، وشرقي المحيط الأطلسي ..

هكذا تقود نظرية "الدول الكبرى" إلى التخبیط

الشديد والأكيد.. وفي الوقت الذي يحسب معتنقوها أنهم يصونون السلام، يكونون موغلين في الأسباب التي تقوض السلام .

ولو أن الحرص على زعامة الدول الكبرى يأتي في المرتبة الثانية من محاولاتنا لصون السلام، لكان الأمر بعض الشيء ..

أما أن يضعه أصحابه في المرتبة الأولى، فهذا ما يجعل تنفيذ ودحضه واجبا محتوما.

لقد اعتمدت السياسة الدولية على نظام "الدول الكبرى" من مؤتمر فيينا عام ١٨١٤، حتى الحرب العالمية الثانية.. فماذا كانت العاقبة..؟

كانت حروبا موصولة.. وظلما، وبغيا، واستعماراً.. وكانت الدول الكبرى.. بمناطقها وتكتلاتها، عصابات خطيرة ملأت الأرض، خرابا وبغيا.. أفنعاود الكرة بعد كل تلك المثالات..؟؟

أفترك الأوضاع هكذا.. دول كبرى تقود، ودول

صغرى تُقاد ..؟

لا.. وإن من أهم واجبات عالمنا الحديث أن يصفى هذا النظام تصفية كاملة، وأن يستقبل عصوراً جديدة لا تكون السيادة فيها للدول الكبرى.. بل للدول جميعاً.. للبشرية جميعاً.

ترى، هل يعنى حديثنا هذا، تجاهل الظروف الحضارية التي تجعل من بعض الدول..دولا كبيرة أى متفوقة تفوقا حضاريا.. وأخرى صغيرة.. أى بادئة فى الأخذ بأسباب الحضارة ..؟

كلا . بيقين ..

ولسنا ننكر أبداً فضل بعض الأمم على بعض.. وسبق بعضها لبعض ..

وإنما ننكر "المفهوم السياسى" لوضع الدول الكبرى.. هذا المفهوم الذى يعنى أوضاعا خاصة، وامتيازات خاصة، وحقوقا خاصة، لهذه الدول المنعوتة بالكبرى ..

والذى يعنى بالتالى تقسيم العالم إلى سادة، وتابعين. إلى
أوصياء، وقاصرين ..





مِحْنَةُ الضَّمِيرِ السِّيَاسِيِّ



خلال الظروف التاريخية التي أسلفناها، تشكل ضمير سياسي مراوغ ومريض .

ضمير تغذى بجميع الإفرازات الضارة التي أفرزها تكالب المال وسياسة الأحلاف، ونشدان المآرب الخاصة. لم يتح للضمير السياسي أن يؤدي واجبه تجاه المبادئ الإنسانية الرشيدة التي اكتشف الإنسان قيمتها، وأهميتها. وانحرفت به ظروفُ تكونه شطر الكذب، والغدر، والوصولية. تلك العناصر الأساسية للسياسة العالمية من عهد بعيد.

نحن نؤمن بتقدم الإنسانية، ونؤمن بأن البشرية تسير

إلى الأمام، وإلى الأفضل دوماً .
 لكن ذلك لا يعنى أنها مبرأة من الآفات
 والنقائص، كما لا يعنى أن ندفن رءوسنا فى الرمال حتى
 لا نرى تلك الآفات .

إن مواجهة الخطأ جزء من الصواب. وإدراك ما هو
 سئ يمثل الخطوة الأولى للظفر بما هو حسن .
 وإذا كانت البشرية تتقدم دوماً على الرغم مما تمتلئ
 به حياتها من مشبطات ومساوئ.. فكـم سيكون
 تقدمها عظيماً وباهراً، إذا نفضت عن نفسها الكثير من
 تلك المشبطات.

والضمير السياسى العالمى، إحدى القوى العاملة فى
 الحياة الإنسانية وإن له لمواقف طيبة تغرى بالاعتماد عليه
 فى تقويم كثير من العوج ..

ولكنه يعمل بمعشار طاقته لا غير.. لأنه لا يزال
 مكبلاً بكثير من رواسب الأزمان الخالية .

لقد حاق به من مؤامرات التجارة، والأحلاف

والدول ذات السيادة والعلو. ما أشقاه وجرفه إلى الضلال ولكننا حين نستطيع تنقيته من تلك الرواسب، وحين تظهر السياسة نفسها من أكاذيبها، وضلالها فإن هذا الضمير قادر حينئذ على الإسهام في بناء رأى عام عالمي، يصون قيم حضارتنا، ويؤمن مستقبل نوعنا ..

وعلى طريقتنا في الفصول السابقة، سنحاول هنا أن نكشف عن انحرافات الضمير السياسي، لنرى مبلغ ما يحدثه في تقدمنا من تخريب.

وسنسير أيضاً عبر التاريخ الحديث، لنرى كيف تشابهت ألاعيب السياسة، وبهتانها، وكيف تكرر نفسها في مجالات السطو، والغرور، وكيف تعاون الضمير السياسي المريض مع رأس المال، ومع الأحلاف على استعمار الشعوب، وتشتيت الصف البشرى .

في - عام ١٨٦٣ - نشبت ثورة بولندا الكبرى ضد

قيصر روسيا ووقفت أوروبا تؤيد الثورة.. لكن "بسمارك" وقف في نشوز عجيب يؤيد القيصر ضد شعب بولندا، وضد ثورته، وضد حقوق الإنسان كلها. حتى لقد سمح لجيوش القيصر أن تحترق بلاده "بروسيا" متعقبة الثوار الذين هربوا إليها .

أما لماذا وقف "بسمارك" هذا الموقف، فهنا نلتقى بمأساة الضمير السياسى لأوربا .

لقد كان "بسمارك" يعد نفسه سراً لغزو النمسا، ومن بعدها فرنسا وهو يريد أن يأخذ إلى جانبه قيصر روسيا، لكي يربح هاتين الحربين.

من أجل هذا رأى أن يُسلف للقيصر جميلاً كبيراً هو تعضيده في إطفاء ثورة شعب يطالب بحريته ..

فالحرية، والحق، والعدل، وكل حقوق الإنسان، مسائل ثانوية بالنسبة لبسمارك، وبالنسبة للضمير السياسى المنحرف..

ولقد حدث ما رسم له بسمارك خطته.. فحين

هاجم النمسا وقف القيصر معه.. ووقفت إيطاليا أيضاً معه، بعد أن وعدّها بالبندقية.

وفي هذه الحرب كذلك، وقف يبارك احتلال فرنسا لتونس، ويشجعها عليه، لأنه يعلم أن احتلالها لتونس، سيسخط عليها بريطانيا.. وراح يشجع بريطانيا على احتلال مصر، لأنه يعلم أن هذا يسخط عليها فرنسا.. وهو يعلق على خلافهما آمالا كبارا !.

وبعد أن ينتهي من حرب النمسا ويهزمها، يتجه شطر فرنسا، ويهزمها هزيمة ساحقة.. ولكنه قبل أن يبدأ الحرب معها يغري النمسا بالزحف إلى البلقان، ويعدها بالمساعدة. وذلك كي يتقى احتمال هجومها عليه أثناء حربه مع فرنسا!!

هذا هو الضمير السياسي الذي قاد قافلة السياسة،

حاملا لواء الأنانية المسعورة، والغدر الرخيص!

وثمة مثال آخر، كله عبرة وحكمة، هذا المثال

هو "حرب القرم".

ذات يوم، أرادت روسيا القيصرية أن تحقق أطماعها في تركيا.. وبحث عن سبب يبرر عدوانها التي وضعت خطته، فماذا كان السبب؟

لقد أعلنت أنها ذاهبة إلى تركيا، لحماية المذهب الأرثوذكسي، الذي تدين به جماعات كثيرة في الدول العثمانية !.

ورأت "فرنسا" أن تدخل روسيا باسم الدين قد نجح وآتى ثمره، فقررت أن تأخذ نصيبها من الغنيمة .
ولكن بأى حجة كاذبة تتدخل ، وتعتدى -؟؟
المسألة سهلة ..!!

إن روسيا تدخلت لحماية الأرثوذكس.. فلتدخل فرنسا لحماية الكاثوليك ..!!

وهكذا تقدمت إلى تركيا بمذكرة ضافية، ضمنتها، أن "هارون الرشيد" كان قد سلم مفاتيح المسجد الأقصى إلى "شارلمان" .. كما أن "سليمان القانوني" اعترف

لخليفه يومئذ "فرنسوا الأول" ملك فرنسا. بحق فرنسا في
حماية كاثوليك الشرق العربي كله ...!!!

بقيت بريطانيا، فماذا هي صانعة - ؟

لم تضيع بريطانيا وقتها ..!"! " وإذا كان هناك
أرثوذكس تحميهم روسيا، وكاثوليك تحميهم فرنسا،
فهناك بروتستانت، ينتظرون حماية أمهم بريطانيا ...!!

وهكذا تقدمت إلى السلطان عام - ١٨٤٠ - طالبة
الإذن ببناء كنيسة بروتستانت في القدس .

ولننظر كيف سارت المهزلة فيما بعد ...

لقد أوحى كل دولة من الدول الثلاث إلى
القساوسة والرهبان التابعين لمذهبها، بأن يشاغبوا
قساوسة ورهبان المذاهب الأخرين.

وبدأت الفتن تنشب بين قساوسة المذاهب الثلاثة،
بالقدس، الأرثوذكس، والكاثوليك، والبروتستانت ..

وجاءت الخطوة التالية ..

فتقدمت روسيا إلى تركيا، متهمة إياها بتحريض

الكاثوليك والبروتستانت على رعاياها الأرثوذكس..
وعليها إذا أرادت أن تثبت حسن نيتها، بأن تسلم فوراً
مفاتيح كنيسة المهد في بيت لحم إلى الرهبان
الأرثوذكس!..!

واقتربت فرنسا، فأرسل نابليونها الثالث،
تهديداً مباشراً إلى تركيا - إن هي أجابت طلب
روسيا، وإذا هي لم تكف عن اضطهاد رعاياها
الكاثوليك "!"...

وأما بريطانيا، فوقفت تمارس دورها المعروف..
فتعرض سلطان تركيا على روسيا وفرنسا.. وتحرض
روسيا وفرنسا على تركيا - حتى نشبت حرب القرم
المعروفة!..!

في هذه الحرب، يتكشف الضمير السياسي، وتبدو
حقيقته الشائهة.. فحتى الدين الواحد يستغل أبشع
استغلال وتُمزق أواصره بين أبنائه على هذا النحو
الردئ، من أجل الحصول على صفقة استعمارية هي

"تركيا"!!..!!

و لم تستنكف الدول التي كانت تتزعم الديانة
المسيحية - وهي روسيا، وبريطانيا، وفرنسا.. لم تتورع
هذه الدول عن تدنيس يديها بتمزيق أواصر الشعب
المسيحي نفسه، وتحريض كاثوليكيه على أرثوذكسه.. ما
دام ذلك سبيلا إلى مطمع غير مشروع..!!! تُرى هل
اختلف الضمير السياسي في منتصف القرن العشرين عنه
في القرن التاسع عشر، قرن بسمارك، وحرب القرم..؟؟
لكي نعرف، علينا أن نستعير بعض الشواهد من
الأمس الرطيب والقريب.. بل من الأيام التي نعيشها ..
في عام ١٩٣٣، تسلم زمام الحكم في ألمانيا دكتاتور
عنيد أحمق.. لم يكده ساعده يشتد حتى أخذ يهوى على
الدول الصغيرة يستعبدها ويسرقها، وحتى أخذ ينادى
ألمانيا فوق الجميع، ويعد لحرب عالمية، تنتهي بسيادة
ألمانيا..

كان الموقف السليم للدول التي تزعم أنها ديمقراطية،

وحامية حمى الديمقراطية، أن تَجَبَّهَ هذا الغرور في بدايته..
ولكن الضمير السياسى المريض تخلى عن المبادئ
الخيرة، فتخلت عنه العافية، وتخلت عنه الرشيد.. هذا
الضمير دفع الديمقراطيتان الكبيرتان!! "بريطانيا وفرنسا
إلى ممالأة هتلر، أولا - وموسوليني ثانياً ممالأة حصد العالم
كله شوكتها فيما بعد .

لقد اجتاح هتلر "حوض السار" ذات صباح، أو ذات
مساء.. وفي استخذاء شديد، ذهبت بريطانيا ووقعت معه
معاهدة سرية!! .

وذات صباح، أو ذات مساء آخر - سطا على
تشكوسلوفاكيا بعد أن ازدرد قبلها النمسا .
أتدرون ماذا حدث ..؟؟

لقد أرسلت الحكومة البريطانية "اللورد نسمان" إلى
الحكومة التشيكية فى مهمة دبلوماسية، وأذيع يومئذ أن
مهمته تتمثل فى تنظيم مقاومة هتلر، مع

تشكوسلوفاكيا.. ثم اتضح أخيراً، وبعد الحرب العالمية الثانية، أن السيد "نسمان" ذهب باسم الحكومة البريطانية لكي ينصح حكومة تشكوسلوفاكيا - بالإذعان لكل مطالب هتلر !!

بقي أن نعرف أنه قبل غزو تشكوسلوفاكيا ببضعة أشهر.. ألقى اهر هتلر خطاباً سياسياً قال فيه :

"إن من أكبر الكوارث، أن تتخلى إنجلترا عن استعمارها للهند !!!"

معتدون يتعامل بعضهم مع بعض، وضمير سياسى فقد كل مقومات الضمير الحر الرشيد ..

وعندما اجتاح "موسوليني" بلاد الحبشة.. ماذا كان دور هذا الضمير ..

اجتمع "صمويل هور" وزير خارجية بريطانيا مع "لافال" وزير خارجية فرنسا - وأعلنا اعتراف دولتيهما بشرعية الاحتلال الإيطالي لجزء كبير من الحبشة..!!

وفي عام - ١٩٣٦ - اجتمع الشعب الإسباني في انتخابات حرة ورفع إلى مقاعد الحكم أعضاء الجبهة الشعبية .

وكان الإقطاع الإسباني يلتهم مقدرات الشعب في أمعاء ليس لها قاع، ولا قرار.

وكان هذا الإقطاع في يد الكنيسة الإسبانية التي كان أكثر رجالها يقفون وراء الرجعية في بلادهم .
لهذا، كان من الطبيعي لتصفية الإقطاع الذي قررت حكومة الشعب تصفيته - أن تواجه الكنيسة رغم جبروتها.

ولقد بدأ هذا فعلا.. وأخذت الإصلاحات الهائلة تتحقق.. وإذ الأرض تنشق فجأة عن "فرانكو" .. فيقوم حركة بل ثورة ضد حكومة اختارها الشعب، وتقوم بإصلاحات يريدتها الشعب!" .. أي أن ثورة "فرانكو" كانت ثورة ضد الديمقراطية، فإذا لم تعاونا دول الديمقراطية، فلا أقل من ألا تحاربها .

ومع هذا فانظروا ماذا حدث .

لقد انهالت المساعدات العسكرية من الفاشية

الإيطالية، والنازية الألمانية على حليفهما فرانكو ..

أما بريطانيا وفرنسا الديمقراطيتان، فقد اتخذتا موقفا

أسمياه "سياسة عدم التدخل"

وكان هذا موقفاً تنكراً .. أما في الحقيقة، فقد

تدخلتا لصالح فرانكو .

ذلك أن بعض المعونات أخذت تفد على حكومة

الشعب الديمقراطية من الخارج .. فأوعزت بريطانيا

لفرنسا كي تغلق حدودها عند جبال البرانس حتى تقطع

الطريق على تلك المعونات !!..

هذا سلوك الضمير السياسي في عالمنا ..

سلوك، يقدم المنفعة على المبدأ .. والخوف على

الواجب .. والباطل على الحق ..

سلوك سببه "تفوق" الضمير السياسي داخل دائرة

ضيقة من مصالح خاصة، ونزعات عنصرية .. وهكذا

اختفى الضمير الإنساني رويدا رويدا.. وأخذ مكانه
الضمير السياسى المتعصب الكذوب.

ولو أن الضمير الإنساني لم يختف ويختنق فى زحمة
الأطماع، لو أنه بقى مكانه يقودنا، ويمسك بمصايرنا
لامتنع قيام الحروب ..

أجل.. لو أن اليابان حين استولت على منشوريا
عام ١٩٣١- وجدت الضمير الإنساني متمتعا
بسلطاته، متحديا عدوانها - لما غزا موسوليني الحبشة
عام ١٩٣٥ ..

ولو كان الضمير الإنساني فى مكانه ليزجر موسوليني
عن غزو الحبشة - لما زحف هتلر على أرض الرين عام
١٩٣٦ ولما زحفت اليابان على الصين عام ١٩٣٧، ولما
زحف النازى على النمسا وتشكوسلوفاكيا عام ١٩٣٨-
ولما قامت بعد هذا، وبسبب هذا، الحرب العالمية الثانية
عام ١٩٣٩ ..

لكن الضمير الإنساني لم يكن موجوداً.. وكان هناك

الضمير السياسي الموبوء بوباء أوربا، والحامل لكل ميكروبات الاستعمار .

والدول المعتدية، تعلم أن علفَ هذا الضمير - هي المساومة وهكذا لكي يظفر هتلر - مثلاً - بسكوت بريطانيا على سرقاته.. ليس عليه إلا أن يُعلن أن احتلالها للهند بركة، وأن جلاءها عن الهند كارثة ..!"!

ولو كانت مسaire بريطانيا، وفرنسا للفاشية والنازية ضرباً من ضروب التعاون الإنساني، لكان عملاً طيباً.. فقد بارك العالم كله هذا النوع من التعاون بين دول مختلفة النظم اختلافاً بعيداً .

في عام ١٩٤٠ خطب "روزفلت" أمام الكونجرس الأمريكي فأعلن "أن مسافة الحلف واسعة جداً بين الولايات المتحدة والاتحاد السوفيتي" ..

ثم لم يمض عام واحد، حتى كان الاتحاد السوفيتي والولايات المتحدة يعملان معاً وفي صف واحد ضد الغزو النازي.

لكن الذى حدث بين بريطانيا وفرنسا من جانب،
وألمانيا وإيطاليا من جانب آخر.. لم يكن تعاوناً على
الخير.. بل تبادلاً للمنافع المنهوبة.

ولقد انتقلت العدوى يومئذ إلى "عصبة الأمم"
فلاذت بالصمت المريب تجاه كل العدوان الذى كانت
إيطاليا، وألمانيا، واليابان تقوم به - مما جعلها تعيش
عمرها القصير. "وكالة حكومات"، لا جمعية أمم
وشعوب..

ومعنى هذا بداهة، أن أية منظمة عالمية، تنهض
لحماية المصير الإنسانى، ستصير عاجزة حتى عن حماية
نفسها، ما دام الضمير السياسى العالمى.. وفى خدمته كل
القوى الشريرة التى تسانده، قادراً على التسلُّ إليها،
وعلى التحكم فيها .

إننا نعجب كثيراً لموقف "عصبة الأمم" بالأمس من
حقوق الإنسان التى كانت تُهدر جهاراً علناً، وهى

ساكتة أحيانا، وشريكة في الوزر أحيانا أخرى..
وتعجب لموقف "هيئة الأمم" اليوم من الحقوق
الكثيرة المهذرة لبعض الأمم والشعوب.. ووراء هذا
الموقف للعصبة وللهيئة، تقف أزمة الضمير السياسي على
رأس الأسباب التي تثمر هذا الموقف الكئيب.
إن هناك - لا ريب - سيطرة الدول الكبرى، أو
بعضها على المنظمات العالمية.. وهناك نفوذ أصحاب
المصالح، وأقطاب الصناعة والمال في العالم .
ولكن، كل هذه القوى، كان من المستطاع نهنهة
الكثير من شرها، ولا أقول - كل شرها - لو أن الضمير
الذي تستهديه المنظمات العالمية، كان أكثر نقاء،
واستبسالا، وأمانة .
لكنه، ومن واجبنا أن نعترف بهذا في غير موارد،
ضمير مثقل بالضعف، وبالآفات .
وهو لا يستطيع أن يكون إلا هكذا، ما دام يعيش
داخل ظروف منحرفة، وما دام يستمد غذاءه، وهواءه

من تلك الظروف الآسنة العكيرة الخانقة ..
 فما السياسة التي تغذى هذا الضمير، وتُصَبُّ
 فيه..؟؟

إنها - كما رأينا من الشواهد السالفة - كرنفال
 هائل مضحك ومزعج معاً من الأكاذيب، والأحاييل
 والمؤامرات .

وهي في أظهر صورها - إن كان فيها طُهر على
 الإطلاق - انعكاس الشكوك، والمخاوف، والأطماع التي
 تنتاب الدول، وتتحكم في تفكيرها السياسي .
 ومُنظمة عالمية، تمثل قيام مجتمع إنساني واحد، لا
 يمكن لها أن تحيا، وتعمل، وفي داخلها ضمير يتغذى بتلك
 السموم .

لقد عاش عالمنا الحديث على آلاف الوعود بأنه
 لا حرب.. ولا ظلم .. ولا استعمار ..
 ومع هذا - فلم تكن قاعدة حياته إلا الحرب،
 والظلم، والاستعمار.. وكانت فترات السلم، والعدل،

والحرية.. مجرد لحظات عابرة.. كأنها أخطاء تورطت
السياسة فيها، ثم لم تلبث أن تخلت عنها وعادت
لتصحيح موقفها...!!!

ويحدث هذا - دوماً - لأن الضمير السياسي الملتاث
هو القائد والرائد .

وليس شر ما في المسألة أن ضميراً مريضاً شريعياً
يتحكم في مقدراتنا ومصايرنا - بل أكثر من ذلك شراً،
غفلتنا، وضعف إدراكنا للخطر الفادح الذي يمثله هذا
الضمير .

إننا لا نضع العين عليه، كعامل من أكثر العوامل
المخربة في صفوفنا البشرية - ومن ثم فلا نبذل جهداً
لردعه وتقويمه.. ومن ثم مرة أخرى - فهو يعمل في حرية
كاملة وطمأنينة أكيدة..!

في ميثاق الأمم المتحدة نص يلزمها بـ "اتخاذ تدابير
مشتركة للقضاء على كل ما يخل بالسلم" ..
ولكن. إلى جوار هذا النص الطيب، تجد مبدأ يُحتّم

"إجماع الدول الخمس الكبرى على كل قرار يصدر عنها" .. !

كيف إذن يمكن اتخاذ تدبير ما لحماية السلام والأمن إذا كان المتهم إحدى هذه الدول الكبرى .

وما سرّ هذا التناقض البين ..؟

إنه الضمير السياسي، الذي يعمل بأهواء عدة..
ويُنَاط به التوفيق بين أطماع ومصالح متنافرة ..

والذي يُحاول دوماً وفي تخبط مستمر، أن يأكل الكعكة، ويحتفظ بها في نفس الوقت ..!

إنه إذا أحسنًا به الظن.. يريد أن يُوجد ظروف السلام، بشرط الإبقاء على كل مغنم الحرب ..!

إن آفة الضمير السياسي لعالمنا، تتمثل في انفصاله عن قاعدته.. وقاعدته هي العالمية القائمة على أساس حقوق الإنسان..

فمحلية الضمير، وإقليميته دفعته إلى إعلاء شأن

الأنانية والتعصب، وإلى تبرير كل الجرائم التي تثمرها
الأنانية والتعصب.

ويوم آمن هتلر بمخلفات أسلافه الألمان، من "فخته"
و"شبنجلر" .. إلى "بسمارك" و"غليوم" الذين هتفوا
بالتفوق العنصري للألمان ..

ويوم نفخ هو في هذه المشاعر. وأحالتها إلى عقيدة
فولاذية ..

ويوم ملأ أفئدة الألمان بأنهم "فوق الجميع"
ووعدهم بألف عام يسودون فيها الأرض، ويوجهون
الدنيا.

يومئذ - كان الضمير الملتاث يُدبر في قساوة
فاتكة أسوأ مصير للألمان، وللعالم كله ..

وكذلك يوم تركزت مفاخر الإنجليز، ومصالحهم،
وأمجادهم في "امبراطوريتنا" .. تنكَّب ضميرهم كل حق ..
ومجَّد كل باطل .. وصارت كلمة دزرائيلي المشهورة ..
"أوثر على حقوق الإنسان .. حقوق الإنجليز" .. صارت

هذه الكلمة شعارهم ودستورهم وموضوع حياتهم.
والظلم الكبير. بل الأكبر الذي جرّع أهل فلسطين
كئوسه المريرة، ما كان إلا ثمرة تمجيد الذات وتمجيد
العنصرية، والعمل داخل نطاق الأنانية البغيضة، والقومية
المقفلة.

وهكذا تتزاحم الأمثلة والشواهد، متماثلة متشابهة،
لتضع أعيننا على أخطر آفاتنا.. تلك هي انفصال الضمير
السياسي عن قاعدته ..

لو أن هذا الضمير يحس المشاكل إحساساً شاملاً
عميماً، وينبض بمصالح العالم مجتمعة. لا بمصالح قطاعات
خاصة، لجُنّب العالم كثيراً من الحروب، وكثيراً من الفتن
والاضطرابات.

ولو أنه كذلك يستهدى المبادئ الإنسانية العامة
لبرئت أرضنا من الظلم، ولترعرعت فيها مباحج الحياة ..

إن انفصال الضمير عن قاعدته التي عرفناها فيما

سبق، لم يجعل السياسة العالمية أنانية وحسب.. بل جعلها ضرباً من الشعوذة والدجل، يلبس الحق بالباطل، ويروض الناس على الشك في كل القيم والوقائع .

والشعار السياسي القائل "اكذب.. واكذب.. ثم اكذب دائماً؛ فلا بد أن تجد من يصدقك" .. هو التعبير اللفظي لأخطر عمليات الشعوذة السياسية التي أشاعت، ولا تزال تشيع في عالمنا الاضطراب والقلق، وفقدان الثقة.

كثيراً ما تلبس السياسة مُسوح العدالة والخير، فينخدع الناس لها، حتى إذا حققت أغراضها الخبيثة، أو كادت.. تكشف زيفها، ولكن بعد فوات الأوان الذي كان مناسباً لدخض مناوراتها .

ومبادئ الحرية، والحق، والسلام، ليست سوى مطايا ذللاً تمتطيها السياسة لتحقيق مآربها .

في عام "١٨٢٢" تُوجت بريطانيا بغار الشرف والمجد، لأنها أبّلت بلاء عظيمًا في سبيل إقرار "مبدأ مونرو"

القائل "أمريكا للأمريكيين"، والذي منع التدخل في الشؤون الأمريكية، فمنع بهذا محاولة النمسا حمل الدول على التدخل لقمع حركات التحرر، وثورات الاستقلال. كانت البلاد الخاضعة للنمسا يومئذ تتفجّر رغبة في الاستقلال والحرية.. وكانت هي تعقد المؤتمرات لتقرر عدم مشروعية هذه الانتفاضات .

ووقفت روسيا، وبروسيا، وفرنسا - مؤيدة النمسا.. بل ومرسلة جيوشها إلى كل بلد ينادى بحريته ويهتف باستقلاله.

وفجأة وقفت "بريطانيا" ضد حلفائها منادية بعدم التدخل في شؤون الدول الداخلية.. وانبهر العالم يومئذ بهذا الموقف، وصاح من فرط النشوة، وروعة المفاجأة: "لقد هُديت بريطانيا".

فهل تعرفون السرّ الذي وراء موقف بريطانيا هذا..؟؟

لقد كان للنمسا مستعمرات كثيرة في أمريكا

الجنوبية ..

وكان بعض هذه المستعمرات، قد بدأ الثورة ضد استعمار النمسا.. فمبدأ "التدخل" الذي تنادى به النمسا، سيمكنها من إطفاء هذه الثورات.. ومبدأ "عدم التدخل" الذي تنادى به بريطانيا سيجعل النمسا تقف وحدها أمام الثورات المعادية لها، والتي اندلعت في كل أنحاء امبراطوريتها..

وبريطانيا حريصة كل الحرص على ضعفة النمسا وإضعافها، وأيضاً على طردها من أمريكا الجنوبية .. وهكذا تبنت مبدأ "عدم التدخل" باسم حقوق الإنسان طبعاً..!" ووقف وزير خارجيتها "كاننج" يعلن في إنسانية مفيضة أن "بريطانيا الدستورية الحرة، ليس من صالحها مساندة الرجعية، والملوك المستبدين".."!"، وأوعزت بالفعل إلى "مونرو" رئيس الولايات المتحدة يومئذ، كي يعلن أن "أى تدخل أوربي في أية بقعة من أمريكا، ستعده أمريكا عملاً عدائياً، وستقاومه ولو

بالحرب" ..

وهكذا انتصرت بريطانيا، وساد مبدأ "عدم التدخل"

سيادة تامة .

والآن، فلننظر بقية النبأ، فإن فيه من الطرافة. قدر

ما فيه من العظة .

عندما جاءت الحرب العالمية الأولى، كانت أمريكا..

لاتزال سائرة على مبادئ "مونرو" .. لا تتدخل في شؤون

أوروبا، ولا تتدخل أوروبا في شؤونها.. هذا المبدأ الذى

أقنعتها به بريطانيا، وحملتها عليه عام "١٨٢٢" ..

أفتظل أمريكا بعيدة عن هذه الحرب العالمية..؟

إنها إن فعلت، كان ذلك نكبة على بريطانيا التى

تتوقع هزيمة كبرى إذا لم تخف أمريكا بإمكانياتها

لنجدتها ومشاركتها الحرب ..

ولكن "مبدأ عدم التدخل" لا يزال قائما.. وبريطانيا

هى صاحبة الفضل فيه، فماذا تصنع ..؟؟

إن السياسة، والسياسة البريطانية بصفة خاصة

لا تعرف المبادئ إنما تعرف المصالح .

ولقد كان مبدأ "مونرو" حميداً، يوم كان يحمي مصالح بريطانيا أما اليوم، "فليسقط مبدأ مونرو"، و"لتحيا مصلحة بريطانيا .."

وهكذا أخذت بريطانيا تتوسل بكل دهائها لهدم ما بنته بالأمس، وتجعل من مبدأ عدم التدخل خيانة لحقوق الإنسان، وجريمة في حق أمريكا نفسها، بعد أن كان أقدس الواجبات؛ فأوعزت إلى الصحافة الأمريكية، وكل أجهزة الدعاية والإثارة لتنادى بأن.. عدم التدخل، هروب وانتحار.. وأن هزيمة بريطانيا في الحرب، ستكون هزيمة لأمريكا، لأن الديون الهائلة التي تدين أمريكا بريطانيا بها، ستضيع مع هزيمة بريطانيا.. ولما انتصرت في روسيا ثورتها الشيوعية عام "١٩١٧" وقررت حكومة "لينين" الانسحاب من الحرب وجدت بريطانيا الفرصة سانحة لإنزال الرعب - كل الرعب - في قلب أمريكا، وأقنعتها بضرورة التدخل، فدخلت الحرب

يوم ٦ أبريل عام "١٩١٧" ..

إن هذا المثال يتكرر في الدنيا كل يوم.. ونبصر دولاتنادى بالمبادئ الإنسانية السامية.. ونبصر ساسة يتخذون مواقف، ظاهرها السمو، والبطولة الإنسانية، والجلال؛ ثم هي منظوية على نقيضها تماماً..

كما نبصر مواقف يتسم ظاهرها بالإخلاص لحقوق الإنسان وهي في حقيقتها مؤامرة محبوكة وخبيثة لقمع هذه الحقوق وتضليل مسعاهها..

إن المبادئ التي يمكن أن تُصاغ منها سياسة صالحة، هي الجديرة اليوم بالسيادة، والذيوغ، حتى يمكن الظفر بضمير سياسى جديد يتوخى المبدأ، لا المنفعة.. ويحترم الحق، لا الباطل.. ويعمل في خدمة البشرية مجتمعة. لافى خدمة قطاعات متنافرة.. وإقليميات متناحرة..





.. والرماح مناجل !



تنبأ بسلام الأرض ومَن عليها، كثيرون من أبناءها
البررة الذين ساروا فوقها هَوَنا .
وعمل لهذا السلام كثيرون بعقولهم، وبسواعدهم
وعمساعِيهم الجليلة النبيلة ..
وهناك على ناصية الطريق من بعيد.. ترك إنسان بارٌّ[»]
بُشرى مضيئة .
إنه "أشعيا" أنبأ أن عالماً جديداً سيَهْلُ زمانه، وتُطلُّ[»]
أيامه — يقف الناس جميعاً فيه إخوة متحايين .
"يطبعون سيوفهم سَكَا"
"ورماحهم مَناجلَ . . ."

"لا ترفع أمة على أمة سيفاً "

"ولا يتعلمون الحرب فيما بعد"

كان سلام العالم "رؤياً" الذين استشرّفوا المصير
الإنساني ببصائرهم المجلوّة المشرقة المُلهمه..

وكان "أمل" الذين استقرّعوا التاريخ، وتتبعوا
حركته؛ فرأوا فيه محاولة صامدة وصاعدة ..

وفي عصورنا هذه قَوِيَ الرجاء، وازدهر الأمل،
وأوشكت "الرؤيا"، أن تصير "رؤية" .. وأصبحت قضية
الإخاء البشري موضوع اهتمام الناس جميعاً.

وهذه الصفحات على الرغم من الحمية المتبديّة في
بعض كلماتها.. ليست إلا تغريدة في مهرجان الأمل
العظيم .

ولكنها تكون تغريدة خالية من المعنى، ومن البهجة
الصادقة، لو أننا تجاهلنا عوامل الفرقة والتمزق ولم
نكشف عنها قناعها وغطاءها، تمهيداً لمقاومتها وعزلها
عن الحياة الإنسانية.

ولقد أتينا على ما نرى أنه أكثر عوامل التفرقة شرا.
وقلنا إنها: -

• رأس المال الهادف إلى الاحتكار والسيطرة.
• الأحلاف التي وقفت وراء معظم الحروب،
والسرقات..

• تقسيم العالم إلى "دول كبرى" لها كل شيء،
و"دول صغرى" ليس لها من الأمر شيء..

• انحراف الضمير السياسى عن المبادئ الإنسانية
وإيثاره المنفعة على الواجب ..

ولقد كان التاريخ شاهد صدق على الدور الوييل
الذى لعبته هذه الآفات الأربع، فى تمزيق وشائج الإخاء
الإنسانى، وفى تضليل إرادة التفاهم، والتجمع،
والالتقاء..!

والآن، نود أن نُوفق إلى وضع خطة نتلافى بها زحف
هذه العوامل الضارة .. وإلى اختيار نهج يقترب من الغد
العظيم ولسنا نزعم أننا نملك الخطة الكاملة ، ولا نُقدم

النهج الأوفى .

وإنما هي "إيماءة" إلى الطريق.. بيد أنها بما تنطوى عليه من صدق المحاولة، وإيثار الفهم على الظن — يمكن أن تكون ذات نفع عظيم

لقد أبانت الصفحات السالفة من الكتاب، المخاطر المبهظة التي تُعرضنا لها الآفات الأربع .

فكيف السبيل إلى نفيها من حياة البشر ..

وكيف السبيل إلى جمع الشتات البشري، والاقتراب

من عصر العالم الواحد والإنسان المحبّ الودود ..؟؟

هذا هو ما سنحاوله في هذا الفصل الأخير من

الكتاب .

موقف نزاع ..

ونبدأ محاولتنا بتصور العالم على الطبيعة.. لا فوق

الخريطة.

وأول شيء ستقع عليه أعيننا، وأكثر مظاهر هذا

العالم إثارة لانتباهنا، هي مسافة الخلف الحافلة بأسبابها
بين معسكرين شهيرين.

(أ) معسكر الرأسمالية ، أو الغرب .

(ب) معسكر الاشتراكية، أو الشرق .

وبالتالى - بين الولايات المتحدة، والاتحاد السوفيتي..

ونحن نؤثر أن نبدأ محاولتنا من هنا.. أعني من

مواجهة هذا الموقف الذى اخترنا له كلمتي "موقف
نزاع" ..

وليس سبب هذا الاختيار فى البدء، أن روسيا

وأمریکا دولتان كبيرتان.. أو أن الرأسمالية والاشتراكية
مذهبان أو حدان..

فنحن كما أوضحنا من قبل، وكما سنذكر من

بعد، لانؤمن بتقسيم العالم إلى كبير وصغير، ولا بتقسيم
المذاهب والفلسفات أيضاً.

فلجميع الأمم حقوقها المتكافئة.

ولجميع الفلسفات حقوقها المتكافئة.

ولا فضل لأمة على أخرى ولا فلسفة على أخرى
إلا بقدر ما تسدى من يد للسلام، وللخير، وللعدل،
وللحقيقة، وللإنحاء..

ولقد قلنا إننا ننظر إلى عالمنا اليوم على الطبيعة ..
وعلى الطبيعة، وفوق صعيد الواقع، نجد دولتين
انتهت إليهما - وفق الأساليب السائدة من زمان - زعامة
العالم في عصرنا هذا..

وسواء تقبلنا هذه الزعامة أو رفضناها، فهي من
جهة الواقع ليست خُرافة ولا وهما.

إن ظروفًا تاريخية معروفة، دفعت كلتا الدولتين إلى
الصدارة في عصرنا هذا.

ونقول "في عصرنا هذا" لأن أحدًا لا يعلم ماذا
تكون الأمور غدًا، إذا ظلت المعايير التي تجعل في العالم
صغاراً وكباراً، قائمة وسائدة.

وتصفية الموقف بين روسيا، وأمريكا، وبين
الرأسمالية، والشيوعية .

هذه التصفية - لو تمت - تكون نقطة الانطلاق
العظيم نحو عالم لا تأثيم فيه ولا غِلّ .
ولكن يجب أن تتم التصفية وفق المبادئ التي تخدم
المصير الإنساني المشترك - لا وفق القواعد التي تخدم
مصاير خاصة..

ولكى يتم هذا على الوجه الحق، لا ينبغي أن تُترك
معالجة ما بين الدولتين، للدولتين وحدهما.. بل ينبغي أن
يسهم العالم كله بنية صادقة في إتمام هذه التصفية .
وتصفية ما بين الدولتين، تقتضى اكتشاف ما كان
بينهما من تاريخ مشترك، واكتشاف عوامل الاتفاق
والقربى التي هي موجودة فعلا والتي تستطيع أن تجمع
بينهما في عمل مشترك عظيم ..

وتصفية ما بين المذهبين، تقتضى معرفة البناء
التاريخى لكل منهما، واكتشاف التخوم المشتركة بينهما،
وفهم فلسفة التوقيت التي تعمل فيهما وتختار بينهما.
لقد ألفنا أن نعطي عوامل الخلف من حرصنا،

وسعيناً، أكثر ما نعطي عوامل القرب والاتفاق.. ومن ثمَّ
كانت شُقة الخلاف تمضي دائماً نحو الاتساع .

أما الآن، فسنقصر محاولتنا على كشف عوامل
القرب.. كشف الأرض المشتركة التي نقف فوقها جميعاً
مهما شَطَّ بنا الخلاف .

تُرى، هل يكون من حسن حظ العالم أن تنحصر
خلافاته الكبيرة والشاقة اليوم بين الولايات المتحدة،
والاتحاد السوفيتي..؟؟
ربما ..

فالدولتان - عبر التاريخ - كانتا دائماً أقرب إلى المودة
المتبادلة منهما إلى الحقد والعداوة .
وبعد ثلاثين عاماً من قيام الدولة الأمريكية، بعد
انتصارها في حرب الاستقلال - إلى أيامنا هذه،
والعلاقات بين البلدين طيبة في مجموعها ..
ويوم وقفت بريطانيا وفرنسا، تغذيان الحرب الأهلية

الأمريكية، وتناصران الجنوب في تلك الحرب، تقدمت
روسيا القيصرية بمساعدات هائلة أحبطت عمل فرنسا
وإنجلترا.. وكان هُتاف الأمريكان يومئذ "الله يبارك
الروس"!!

ولعلّ مخاوف أمريكا من روسيا، لم تأخذ شكلها
الحاد إلا يوم انتصرت الثورة الشيوعية، وقام الاتحاد
السوفيتي .

فعدّاة هذه الثورة، سمحت أمريكا لنفسها أن تتدخل
بقوة السلاح في شئون روسيا وضد حكومتها .
كما سمحت لنفسها أن تمتنع عن الاعتراف
بالحكومة الجديدة مدى أربعة عشر عاماً - من عام
١٩١٨ حتى عام ١٩٣٣ .

على أن في التاريخ ظاهرة عجيبة. تُشير إلى أن في
علاقات روسيا وأمريكا وشيخة هامة لعلهما عاجزان عن
رؤيتها.

ففي الحرب العالمية الأولى.. وقفت الدولتان في

جبهة واحدة..

وفي الحرب العالمية الثانية.. وقفت الدولتان في جبهة

واحدة..

والعبرة في الحرب الثانية ألع منها في الحرب الأولى..

فالحكومة الروسية التي خاضت الحرب مع أمريكا في

الحرب الثانية - كانت حكومة شيوعية ..

وهذه الحكومة كانت في حلف مع هتلر.. حتى

كشفت لها الظروف الصحيحة أن مكانها ليس مع هتلر..

وإنما مع حليف آخر.. وكان هذا الحليف - أمريكا.

أليس ثمة سرٌ خفي يجمع بين الدولتين في ساعات

الخطر.

بلى.. هناك سر، ولكنه ليس خفياً.. بل هو واضح

ومائل فيما بين الدولتين من إمكانيات طبيعية للتفاهم

والتأخي..

ماذا تنقم أمريكا إذن من روسيا؟

وماذا تنقم روسيا من أمريكا؟

لا بد أن التّراع بين المذهبين الرأسمالي، والشيوعي —
على رأس عوامل الخلاف بين الدولتين .
وسوف نعرض لهذا العامل عندما نتحدث عن
الخلاف المذهبي .

أما الآن فنرى أن من أسباب نقمة أمريكا على
روسيا، أنها:

أولاً - مسؤولة عن معظم الانتفاضات الثورية في
بلدان آسيا وأفريقيا ..

ثانياً - مسؤولة عن الحملات التي تعرضت لها أمريكا
في كثير من بلدان آسيا وأفريقيا..

ثالثاً - مسؤولة عن التفرير الذي تُوقعه بالشعوب
الأخرى، مما يجعل هذه الشعوب تتخذ من روسيا صديقاً
لها.. وكل صداقة لروسيا - تعني عند أمريكا - العداوة
لأمريكا ..

رابعاً - محاولاتها المتكررة لبيسط سلطانها
وسيادتها ونظامها على العالم .

ونحن لا نخمن هذه الأسباب ولا نفتعلها.. وإنما هي مبسوطه في كل الكتابات الأمريكية التي كتبها كبارُ كُتَّاب أمريكا ومعلقوها السياسيين.. ومبسوطه كذلك في التصريحات الرسمية الكثيرة للمسؤولين الأمريكيان ..

• فأما مسئولية روسيا عن ثورات التحرير في العالم. فهو شرف عظيم تضيفه عليها أمريكا، وهي لاتدرى .. ونحن بدورنا نُشرك أمريكا في هذا الشرف.. باعتبارها صاحبة ثورة من أنظف وأعظم ثورات التاريخ.. ثورة كانت الطليعة للثورة الفرنسية نفسها، ولكل ثورات التحرر في أوروبا خلال القرن التاسع عشر، ومطالع القرن العشرين..

وحتى إذا كانت روسيا مسئولة وحدها عن ثورات ما بعد الحرب العالمية الثانية، فهل في ذلك ما تبتئس به أمريكا..؟؟

إننا نفهم أن يثير هذا مغايظ بريطانيا، وفرنسا، لأن العقد الذي انفرط بهذه الثورات كان عقدهما.. أما

الولايات المتحدة، وطن جيفرسون، وواشنطن، ولنكولن.
فما لها في ثورات التحرير عدو تخشاه .

• أما مسئوليتها عن الحملات التي تعرضت لها
أمريكا في كثير من بلدان آسيا وأفريقيا.. فالمسئول الأول
والأوحد - أمريكا نفسها منذ أسلمت "ذقتها" لحلفائها،
وخاضت معهم أوحال أقصى استعمار مارسوه وفرضوه
على الناس ..

عندما حرص "ترومان" رئيس الولايات المتحدة على
أن يكون أول مهنئ بقيام دولة "إسرائيل" دون أن يُدخل
في اعتباره الفطن ، التبعات السياسية لهذه المبادرة..
ودون أن يُجامل العرب في مآساتهم الكبرى، ولو
بالتريث قليلا في إرجاء التهئة...!!!

عندما فعل هذا، أثار حفيظة العرب بلا ريب ولم
تكن روسيا صاحبة الفضل في هذه الإثارة .

وعندما تُعلن حكومة مصر إلغاء معاهدة "٣٦"

وُترسل بريطانيا شواظا من نار على شعبها في القنال ثم يقف وزير خارجية أمريكا ليعلن " أن حكومة مصر لا تملك الحق في إلغاء المعاهدة " ويُناصر بهذا التصريح كل أعمال البطش البريطاني ضد شعبنا.. فإن مثل هذا الموقف يثير نقمتنا لا ريب.. ولم تكن روسيا صاحبة الفضل في هذا..

وعندما تفاجئنا حكومة الولايات المتحدة بسحب تمويل السد العالي، وفي ساعة خَطِرة من ساعات حياتنا.. ثم تشفع عملها هذا، بإشهار إفلاسنا على العالم أجمع، بطريقة لا ذوق فيها ولا عدل ..

فإن هذا الموقف يدعو للغضب لا ريب.. ولم تكن صاحبة الفضل فيه - روسيا ..

وحين تحمل أمريكا، هيئة الأمم المتحدة على حرمان الصين من أبسط حقوقها وهو عضوية المنظمة العالمية المذكورة.. فإن ذلك يثير الحفيظة، والريب.. وليست روسيا صاحبة الفضل في هذا...

وهناك مواقف كثيرة تُتَّسَم بالرداءة، تورطت فيها سياسة الولايات المتحدة.. ولكننا لا نستطرد في ذكرها، لأن تصفية الأحقاد، لا إشعالها. غرضنا من هذا الكتاب. وما كنا لنسوق هذه الأمثلة، لولا أن المقام يتطلب ذكرها حتى نصحح موقفاً، يتطلب سلام العالم تصحيحه.

• أما مسؤولية روسيا عما تعتبره أميركا تغريراً بالشعوب التي تُسارع إلى صداقتها؛ فلنسأل التاريخ عن هذا.

عندما قامت حكومة "لينين" في روسيا، بدأت عملها بنشر الإتفاقات السرية التي كانت قد أبرمت من بريطانيا، وفرنسا وقيصر روسيا.. والتي وُزع العالم بمقتضاها بين الدول الثلاث كغنيمة باردة ..

وعلى الرغم من أن هذه الاتفاقيات السرية كانت تمكن روسيا من فرصة ذهبية، وتعطيها استانبول،

والدردنيل، وبحر مرمرية، ومنطقة واسعة تتاخم القفقاس .
على الرغم من هذه الفرصة الذهبية النادرة، فقد
أعلن "لينين" تنازل روسيا، بل اشمئزازها من هذه الصفقة
المسروقة.

لتقل أمريكا في دوافع هذا العمل ما تقول.. ولكن
ألا تعترف أنه عمل عظيم باهر..؟؟ وأليس مثل هذا
العمل يدعو إلى حب أصحابه وتقديرهم..؟؟
وهل هذا الحب ثمرة تفرير وخداع ..
إن الاتحاد السوفيتي في منطقة كمنطقة الشرق
الأوسط لم يخلق لنفسه عدوات بين أهلها.. عدوات
تحمل الناس على الخوف منه فضلاً عن بغضه .
تماماً مثل الولايات المتحدة قبل أن تحمل أوزار
حلفائها.

لقد ثار العرب ثورتهم الكبرى عام - ١٩١٦ ..
وفي تلك الثورة، ناصرُوا الإنجليز والفرنسيين ضد
الدولة العثمانية - أملاً في الظفر بحريتهم التي وعدهم بها

الإنجليز والفرنسيون..!"

ولكن قبل هذه الثورة بشهر واحد، كانت بريطانيا وفرنسا قد وقّعتا مع القيصر اتفاقية "سايكس بيكو" ومزّقوا بها العرب شرّاً ممزق.. في نفس الوقت الذى يقولون للعرب فيه: ساعدونا ضد تركيا، ولكم الحرية كافة والاستقلال كاملاً..

ولم يفضح لنا هذا الإتفاق الغادر سوى حكومة الاتحاد السوفيتى ..

وفي إيران — ورثت حكومة "لينين" جزءاً كبيراً كانت تحتله حكومة القيصر، وفق معاهدة سرية بين القيصر وبريطانيا.. فما إن تسلم "لينين" زمام الحكم حتى سحب جيوش بلاده فوراً.. وبدلاً من أن تصنع بريطانيا صنيعاً مماثلاً، زحفت بجيوشها شمالاً، واحتلت جميع إيران..!!!

أفيكون هذا العمل من روسيا تغريراً وخداعاً ..

وفي تركيا - حين قام .. "أتاتورك" بثورته وألغت
بريطانيا ضده كل دول العالم فرفضت الاعتراف به..
واستولى الجيش البريطاني على نصف أراضي تركيا،
واحتلت إيطاليا جزرها - لم يسارع لنجدتها سوى الاتحاد
السوفيتي الذي اعترف بحكومة "أتاتورك" ..

وأحبط المشروع البريطاني الفرنسي الإيطالي اليوناني
الذي كان يهدف لتمزيق تركيا واقتسامها، وأمست
معاهدة "سفر" المشهورة، هباء في هباء ..!!
أكان هذا العمل تغريراً وخداعاً ..

ومصر - عندما وقف الاتحاد السوفيتي يناصرها في
مجلس الأمن أثناء عرض قضيتها عليه عام ١٩٤٨ .
وعندما امتنع الغرب عن إمدادها بسلاح قبض ثمنه
مقدماً فبسط الاتحاد السوفيتي يده إليها بالسلاح .

وفي حرب السويس عندما وقف "بولجانين" يعلن
باسم حكومته وبلاده أن الاتحاد السوفيتي قادر على
قصف المدن البريطانية والفرنسية بالصواريخ الموجهة، إذا

لم تنه بريطانيا وفرنسا عدوانهما المسلح ..
 أكانت هذه المواقف تغريراً وخداعاً..؟؟ كيف نعتبر
 تمويل المرحلة الأولى في بناء السد العالي مثلاً - ضرباً من
 التغرير. ونحن نرى البناء يُشاد ويرتفع ..؟
 الحق أن أمريكا تستطيع أن تكتشف بنفسها
 ولنفسها، أن حُبَّ الشعوب التي تناصرها روسيا لروسيا
 ليس ثمرة خداع ولا تغرير، إذا جرّبت هي، ومنحت
 هذه الشعوب قلبها وودها، وعاونتها على نيل حقوقها
 كاملة .

عندئذ ستحبها هذه الشعوب وتحترمها - كما أحبت
 روسيا واحترمتها... وعندئذ ستعرف من طعم هذا
 الحب حين تذوقه - أنه ثمرة الفهم وحفظ الجميل.. لاثمرة
 الخداع والتغرير.

أما محاولة روسيا بسط سلطانها ونظامها على
 العالم.. فنود أن نسأل:

هل في محاولتها هذه - إن صحّت - ما يشدّ زناد

البغضاء، ويوسع شقة الخلف بين أمريكا وبينها .. "؟!"
 لقد عاشت العلاقات ودية وطبيعية بين أمريكا
 وبريطانيا يوم لم تكن بريطانيا تحاول فحسب بل كانت
 تبسط على العالم بالفعل سياستها وتفرض عليه
 استعمارها ..

وفرنسا، صديقة أمريكا وشريكها في حلف
 الأطلسي، ترتكب خلال أربعة أعوام موصولة الأيام
 والليالي، أبشع أنواع السيطرة، والاستعمار والتخريب .
 فهلا تستطيع أمريكا أن تعامل روسيا بالمثل فتهبها
 صداقتها في نفس الوقت الذي تحاول فيه روسيا بسط
 سلطانها ونظامها على غيرها..!؟

قد يبدو هذا السؤال ساخرًا.. ولكنني مع هذا أعنيه.
 ثم إذا كان هذا الاتهام صحيحًا.. وكانت روسيا
 تبغى حقيقة بسط سيطرتها وسلطانها؛ فما سبيل
 الحيلولة بينها، وبين محاولتها..؟

إنها سبيل واحدة.. هي دعم سلطان هيئة الأمم

المتحدة دعماً كاملاً، وتمكينها من بسط نفوذها على الدول الكبرى نفسها، حتى تصبح قادرة على كبح جماحها حين تُحاول الجموح إحداها.

و حين ترتفع تصرفات أمريكا إلى المستوى الذى تتطلبه سيادة الأمم المتحدة.. وحين تُسخّر نفوذها لدعم هذه السيادة، ستكون حقاً قد قطعت الطريق على كل محاولة فردية لبسط النفوذ والسلطان .

لابد من اكتشاف جميع عناصر التفاهم المشترك، القائمة والممكنة، فى العلاقات الأمريكية الروسية.. و لابد من تنمية هذه العناصر، ودعمها بما هناك من مصالح مشروعة ومشاركة بين الدولتين ..

فى عام ١٩٤٥- زار موسكو " أريك جونستون " رئيس الغرفة التجارية الأمريكية يومئذ -، واجتمع برئيس وزراء الاتحاد السوفيتى، وكان الرفيق " ستالين " .

وقال له ستالين:

"إن الولايات المتحدة، قد أسدت إلى الصناعة"

"السوفيتية عوناً عظيماً"
 "وفي الاتحاد السوفيتي مصانع كثيرة أنشئت
 "بالعون الأمريكي، أو استعين في إنشائها بالخبرة"
 "الأمريكية"

وقال أيضاً:

"لقد صنع هتلر الأحمق خيراً واحداً . . هو أنه"
 "جمع بين الشعب الأمريكي، والشعب الروسي"
 "وعلينا ألا نسمح لشيء ما أن يفرق بيننا . . ."
 "نعم .. يجب أن نعمل معاً بعد الحرب"

هذا عن التراع بين الدولتين .

أما التراع بين المذهبين، أو النظامين - الرأسمالي،
 والشيوعي فأمره هين إذا نَحِينَا اللُغْط وتوَحِينَا الفهم
 الصحيح.

عندما انتهت الحرب العالمية الأولى عام "١٩١٨"،
 انتهت معها الزعامة الفعلية لـ "أوروبا" ..
 ويومئذ، أخذت تركتها، وميراثها ينتقلان في تدرُّج

وأناة إلى أمريكا بنظامها الرأسمالي.. وروسيا، بنظامها
الاشتراكي..

ونستطيع أن نقول: إن أمريكا ورثت "أوربا" ..

وإن روسيا ورثت "نقيض أوربا" ..

أى أن أمريكا أخذت النظام الاقتصادى الرأسمالى
الذى كان قائماً فيها بالفعل حتى قبل أن ترث "أوربا" ثم
صارت به فى امتداد صاعد ..

وأما روسيا، فأخذت من هذا النظام نقيضه المتفوق
عليه..

وإذا أخذنا، فى تجوُّز، بنظرية الديالكتيك، قلنا: إن
أوربا قدّمت لعصرنا الحديث الشئ ونقيضه .

والشئ، ونقيضه - يعملان اليوم على صعيد المرحلة
التاريخية الماثلة.. وسيُثمران معاً النتيجة المركبة التى
ستتضمن خيراً ما فى الشئ وخيراً ما فى نقيضه .

والشئ هنا - هو الرأسمالية، بكل فلسفاتِها
ونظمها..

ونقيضه - هو الاشتراكية، بكل نظمها
وفلسفاتها..

وفي كل مجالات الطبيعة نجد الأشياء، وأضدادها
تعمل معاً وتتفاعل معاً لأداء غرض واحد هو: استمرار
الحياة، والكشف عن إمكانياتها الوافدة الواعدة.. دون
أن ينشب بينها قتال..

فلماذا لا يقوم. في المجال الاجتماعي "نفس التعاون
بين الشيء ونقيضه.. بين الرأسمالية، والاشتراكية.."
ولماذا لا يكون لنا - نحن البشر - دورنا في دعم هذا
التعاون وتقبل قوانينه..؟

لست أدري مدى ما في وجهة نظري هذه من خطأ
محمّل.. ولكني أحسب أن فيها بصيصاً قوياً من
صواب، يمكن أن يكبر وينمو بما يُضيفه إليه القارئ من
تفكيره وذكائه.

وأحسب كذلك أن من ضرورات الإخاء البشري،
والسلام العالمي، أن تدرك الرأسمالية، والشيوعية، أنهما

يصنعان معاً مصيراً إنسانياً واحداً..

ولن تكون لأحدهما الغلبة - حين تنسحب الأخرى من الميدان.. بل ستكون الغلبة للتقدم الإنساني قاطبة، وللقافلة البشرية بأسرها.

إن حركة التاريخ تقرر دائماً، وتختار النهج الملائم لسير التقدم الإنساني.

وهتاف كل فريق بمذهبه، وفُتونه بنظامه، لا يعنيان خِداع هذه الحركة الذكية الواعية.. فهي ماضية إلى البشرية كلها. لا تُحابي، ولا تتملق.

ونقد كل من المذهبيين للآخر، لم يعد يستوجب العداوة والحقد، والحرب.

كما أن أي نقد يوجه إليهما من خارج معسكريهما، يجب أن يجد فرصته في الإفصاح والتعبير.. سيما وكل مذهب يريد أن يكون الرائد للتقدم الإنساني، ويزعم أنه على ذلك قدير.. فلا أقلّ إذن من أن يسمح للذين سيمضون وراءه أن يُناقشوه، ويتأكدوا من جدارته

- "تروا ما تمّ فيها . لقد زالت الرأسمالية القديمة ، "
- " أو كادت "
- " صُفِّيت في روسيا . . وهي في حشرجة الموت . . "
- " في أوروبا . . وتكاد تختنق في بريطانيا "
- " ولقد كانت فترة رياستي للغرفة التجارية فترة تجربة "
- " ودراسة .. وقد اقتضاني عملي فيها أن أتجول في "
- " أقطار الأرض فرأيت مصرع الرأسمالية بعيني رأسي "
- " وقد اقتضاني عملي أيضاً أن أتجوّل في أمريكا مرارا "
- " لا حصر لها..؛ فخرجت من رحلاتي كلها بهذه "
- " العبرة: إما أن تُسائر المبادئ الحرة وإما أن . . . "
- " نواجه خطر الانقراض.. هذا هو ناموس الحياة : "
- " المسائرة .. أو الانقراض !! "

* * *

كذلك قامت الشيوعية بنقد نفسها، نقداً عملياً
تجلى في التعديلات الكثيرة التي كانت الماركسية تخضع
لها على ضوء التطبيق العملي في أول حقل لها، وهو

روسيا..

كما أن المآخذ التي أدان بها "خروشوف" سلفه الرفيق "ستالين"، كانت في جوهرها اعترافاً ضمناً بوجود نقاط ضعف في النظام نفسه تحتاج إلى تصويب وتقوم.

ولقد نُشر كاتب أمريكي كبير كتاباً بعنوان "قضية السلام" ونُشر ملخص كامل له باللغة العربية .. وعلى الرغم من أننا لانوافق المؤلف في بعض النقاط، إلا أنه - في مجموعه - يمثل وجهة النظر التي نقرها هنا. وهي أن المذهبين قادران على أن يعيشا معاً عيشاً حميداً.. وعلى أن النقد يجب أن يكون موضع حفاوئهما، إذا كانا يثقان بنفسيهما..

وقد قام المؤلف نفسه، وهو "أمري ريفز" بمناقشة الرأسمالية، والشيوعية .

وعلى الرغم من أنه أمريكي، ولا يؤمن بالشيوعية، فقد قال قولاً فيه كثير من الاعتدال، والحكمة .

قال تحت عنوان "إخفاق الرأسمالية "

"كانت الرأسمالية هي الفلسفة الاقتصادية السائدة"

"عند مولد النهضة الصناعية وكانت ثورات التحرير "

"السياسية قد حققت غاياتها في بداية القرن التاسع

عشر"

"وكان من الطبيعي أن تصبح المثل العليا السياسية "

"التي انتصرت، هي المبادئ الأساسية السائدة"

"في ميادين الاقتصاد والصناعة والتجارة في فاتحة "

"العصر الصناعي وهكذا سارت حرية الاجتهاد، "

"وحرية التجارة، وحرية المنافسة جنباً إلى جنب "

"مع الحرية السياسية"

"على أن الاقتصاديين من دعاة الحرية المطلقة "

"للاجتهاد، عجزوا عن أن يدركوا أن الحرية في "

"الشئون الاقتصادية لا يمكن أن تكون مطلقة، إلا "

"إذا كانت المساواة التامة المطلقة قائمة بين الأفراد "

"وإلا إذا ألغى الميراث ، وصار على كل إنسان أن "

- "يبدأ من البداية - الأمر الذى ليس ممكننا -"
- "ومن الجلى أن النظام الموجود الآن فى الدول"
- "الرأسمالية ، لا يمكن أن يُسمى - اجتهادا حراما مع"
- "احتكار كثير من الصناعات احتكارا يمنع أن"
- "توجد محاولات جديدة"
- "ومن أجل هذا، خلقت الحالة الصناعية الحديثة"
- "ثروات لا تتناول إليها الأحلام للأقوياء من الوجهة"
- "الاقتصادية، وفقرا ونقصا فى الحرية للملايين الذين"
- "صار عملهم مجرد سلعة !!"

ويقول المؤلف نفسه تحت عنوان "إخفاق

الاشتراكية":

- "كان المثاليون الذين يؤمنون بالمجتمع الجامع مقتنعين"
- "بأنه متى تمَّ تحويل ملكية الأرض ووسائل"
- "الإنتاج من الأفراد إلى الدولة؛ فإن المساواة"
- "الاجتماعية تتحقق، فيوجد مجتمع جديد سعيد"

- " يعيش في رَغْد "
- " على أنه تبين بعد سنوات قليلة من قيام الثورة "
- " الشيوعية أن المساواة الاجتماعية والاقتصادية "
- " لا تتفق مع طبيعة الإنسان " ! " فإن الاجتهاد "
- " الخاص لازم للتقدم ، ولا معدى عن مقدار من "
- " الملكية كنتيجة للحرية الإنسانية وقد ظلت الأمة "
- " الروسية عشرين عاما تعمل بهمة وإخلاص في سبيل "
- " إحراز قوة صناعية عظيمة ، وإنتاج الأسلحة "
- " اللازمة للدفاع عن بلادها إذا هُوجمت ولكن "
- " مستوى المعيشة ظل منخفضا جدا على الرغم من "
- " أرقام الإنتاج الضخمة وقد اضطر الشعب السوفيتي "
- " أن ينزل عن حرите الفردية، وعن كل أمل في "
- " حياة رغيدة قريبة، وفي إنتاج سلع الاستهلاك التي "
- " يحتاجها ليتسنى له قصر جهوده على صناعة مواد "
- " الحرب .. وقد أثبت الهجوم الألماني على روسيا في "
- " يونيو عام - ١٩٤١ - أن الاهتمام بالصناعات . . "

"الحربية كان أمراً لا بد منه وجاء الانتصار في"
 "ستالنجراد دليلاً على مبلغ نجاح هذه الخطة . . ."

وبعد أن يطنب "أمري ريفز" مؤلف "قضية السلام"
 في نقده للاشتراكية مثل إطنابه في نقده للرأسمالية، ينتهي
 إلى هذه الكلمات المعتدلة الحسنة :

"لا محل هناك للجزم بشيء فيما يتعلق بالنزاع بين"
 "الرأسمالية، الشيوعية فإن كليهما تعلن أن غايتها"
 "رفع المستوى المادى والثقافى للجماهير"
 "أما أن يكون هذا النظام، أو ذاك - أقدر على"
 "إدراك هذه الغاية، فأمر يجب أن يتقرر بعد"
 "التجربة، لا بأن يحطم كل منهما رأس الآخر"
 "وإذا كان شعب معين. كالشعب السلافى تميل به"
 "تقاليدته التى مضى عليها قرن إلى الملكية العامة ،"
 "وإذا كانت شعوب أخرى، كالاتينية والأنجلو"
 "السكسونية، تميل بها تقاليدها إلى الملكية الخاصة"

"فإنه ليس هناك أدنى سبب يمنع هذه النظم المختلفة "
 "من الوجود معاً، والتعاون معاً"

* * *

هذا هو الموقف الفكرى والسياسى الذى ينبغى أن
 يكون طابع العلاقات بين المذهبين المتنازعين .. الرأسمالية
 والشيوعية .

وليس من حق دُعاة المذهبين أن يغلوا ، أو أن
 يُفارقوا مشاعر الشك والتربص .

وينبغى أن يحمل كل فرد تبعاته حيال هذا الذى
 أسميناه "موقف نزاع" بين الرأسمالية والشيوعية ..
 مُدركين جميعاً أن إقرار السلم، والإخاء فى زماننا، رهن
 بإحراز قدرة على التسامح، والفهم، تستعلى على كل
 تعصب وبغضاء ..

مال ، بغير رأس ..

تحدثنا عن سير التجارة عبر التاريخ، ورأينا كيف
 ارتبطت بالحروب دائماً، حتى اصطنعت أوربا شعاراً، بل

عقيدة تقول:

"الحرب تنعش التجارة" ..

ولقد تطورت التجارة تطوراً ضاراً، حتى صارت
رأسمال محتكر متسلط.. وتطورت الرأسمالية، حتى بلغت
أوج امتدادها، فإذا هي استعمار وحروب ..

والناس معذورون، حين يُحمّلون "رأس المال"
المسئولية الأولى عن الحرب وتخريب عالمهم .

فسلوك الرأسمالية لا يشجع أبداً على الثقة بها .

إنها تخون، حتى وطنها، عندما تتعرض مصالحها
للضرر والخطر..

في عام "١٩٣١" لم يكد الرأسمال البريطاني يُحس
بوطأة الأزمة العالمية.. حتى وجّه لبلده بريطانيا ضربة
قاصمة..!

فقد قام أصحاب رءوس الأموال بتهريب أموالهم
خارج بريطانيا، واضطرت الحكومة الانجليزية تجاه
عملهم هذا، أن تقرر فصل الجنيه الاسترليني عن قاعدته

الذهبية.. فهبطت قيمته فوراً إلى ثلثي ما كان عليه ..!!
الناس معذورون؛ لأن ظواهر كثيرة تجبّه رأس المال
بالإتمام.

• ففي الأزمة العالمية عام "١٩٣٠"، توقفت المصانع
وأجدبت الحقول، وترك الفلاحون في كل العالم
محاصيلهم، أو كادوا يتركونها في مكانها من الحقول..
لأن أثمانها حين تُباع، لا تفي بنفقات جنيها وجمعها..
وملأت البطالة والمجاعة كل البلاد.

كل الصناعات توقفت أو كادت.. ما عدا صناعة
واحدة، زادت ازدهارا، تلك هي صناعة الأسلحة ..!!!
• وتعترف بريطانيا زعيمة الرأسمالية يومئذ اعترافا له
قيمته فتقول في المذكرة التي أرسلتها إلى الحكومة
الأمريكية عام "١٩٣٢" بشأن ديون الحرب :

"إن الآلام التي تُعانيها البشرية لا يرجع سببها
"إلى جحود الطبيعة ولكنه يرجع إلى خطأ النظم .."
"التي تسير عليها"

• ويقف "هتلر" عام ١٩٣٩، فيقول في خطاب له:
 "على ألمانيا أن تُصدّر، أو تموت" ..
 ويرد عليه "هدسون" الوزير البريطاني من لندن،
 فيقول:

"وبريطانيا أيضا، عليها أن تُصدّر أو تموت" ..!
 وهكذا أشعل التراع على التصدير والربح، أبشع
 حرب في التاريخ! ..!

• ويحدث توافق سعيد، بين الحرب الكورية
 عام "١٩٥٠" وبين الأزمة الأمريكية التي سبقت حرب
 كوريا وتبدو العلاقة بين الأزمة، والحرب واضحة مُبينة .
 فقبيل حرب كوريا - كما يحدثنا كتاب "الحرب
 والشعوب" للأستاذ بدر السباعي -، هبط مستوى الإنتاج
 الأمريكي إلى ٢٢% ..

وزادت قيمة البضائع المخزونة، ٦٠% ..
 وهبطت أسعار المحاصيل الزراعية، ١١% ..
 وهبطت أرباح الشركات الرأسمالية، ٢٥% ..

وبلغت الافلاسات ، ٧٥% ..

ووصل عدد العمال العاطلين، ثلاثة ملايين، ونصف

مليون عاطل ..

فلما نشبت الحرب الكورية، أخذت الأزمة

الاقتصادية الأمريكية تنقشع، ونشرت مجلة "الولايات

المتحدة والعالم" تقول:

"إن الحرب الكورية أوجدت أوضاعاً قادرة على"

"إبقاء الإنتاج في مستوى رفيع . ولقد جاءت هذه"

"الحرب في أوانها"! ؛ لتدفن شبح الأزمة الذي"

"كان يرعب رجال الأعمال الأمريكيين ، والذي"

"أقضى مضاجعهم منذ نهاية الحرب العالمية الثانية.!!"

• وبعد زيارة "خروشوف" لأمريكا مباشرة، يعلن

مسئول أمريكي، و"سناتور" كبير: -

"إن وقف الحرب الباردة ، خطر على أمريكا . لأنه"

"سيسبب لتجارها المتاعب ، ولمصانعها التوقف ،"

"ولعمالها البطالة"

ولا بد لِنُشْدان السلام، فضلا عن إقراره، أن يُقرر
مصير رأس المال أولا ..

والبشرية حتى يومها هذا، لا تستغنى عن المال، ولا
عن التجارة ومن ثمّ، فنحن لا ننادى بالغاءها. إنما ننادى
بضرورة تطويعها لمبادئ التقدم الإنسانى الماضى نحو
بشرية واحدة جديدة. لا استغلال فيها ولا عدوان.

أجل.. نريد مالا بغير رأس .. إن صحَّ هذا التعبير .

هل تريد الرأسمالية ، القناعة ، أم الجشع..؟

هل تريد رحمة الناس، أم هلاكهم ..؟

هل تريد تقدم البشرية، أم تخلفها وانتكاسها ..؟

إنها تردد دائما - أنها تريد تقدم الناس

ورخاءهم وسعادتهم.. وحسن هذا.. وعليها إذن أن

تبحث لنفسها عن نهج لا يجعل الاستغلال أوضح

خصائصها، والحرب أصدق نتائجها ..!!!

إن الاعتزاز بالرأسمالية، يلوذ أكثر ما يلوذ بمنطق

واحد. هو: أنها النظام الذى يحقق حرية الفرد.. هذه

الحرية اللازمة لكل نشاط إنساني عكس الاشتراكية ،
التي تُعلى سلطان الجماعة على كل سلطان ..

ونحن نسأل: ألا يمكن أن يسود سلطان الجماعة
سيادة مقيدة بالحقوق الأساسية الثابتة للفرد ..؟؟

ونجيب: بلى، يمكن هذا. وهو ما نريد أن يسير عليه
النشاط الاقتصادي دوما ..

ثم أين حرية الفرد في الرأسمالية ما دامت تعتمد في
ازدهارها، على المنافسة غير المشروعة.. وعلى الاستغلال
والحرب..؟؟

هل تُبقى المنافسة الظالمة. والاستغلال، والحرب،
حرية للناس ..؟

بل أين "حرية التجارة" نفسها، وهي أهم مميزات
الرأسمالية وأبرز خصائصها ..؟

لقد انتهت التجارة، يوم قامت الحواجز الجمركية،
والحماية الجمركية.. وأمسى نظام الاقتصاد الحر غير ذي
موضوع..!

تماماً، كما انتهت حرية الفرد حتى داخل الدول
 الرأسمالية نفسها يوم قامت التكتلات الكبيرة من
 أصحاب الصناعات الكبرى والرأسمال المكتتر ..
 إن تفادى المصائر المظلمة التي تُسببها الرأسمالية
 المحتكرة يبدأ من نقطة هامة كل الأهمية. ألا وهي: تجريد
 رأس المال من سلطانه ومن حقوق السيادة التي انتحلها
 لنفسه .

وهذا العمل، لا يُنَاط بأمرىكا. ولا يُنَاط بروسيا،
 ولا بأية دولة من الدول مهما يكن شأنها.. إنما يُنَاط
 تنفيذه بهيئة الأمم المتحدة رأساً .
 أما كيف يكون ذلك.. فنرجو أن نتحدث عنه ،
 بعد فراغنا من النقطتين التاليتين ..

ميثاق الإنسان ..

كما أن تجريد رأس المال من سلطانه، أمر محتوم لبناء
 عالمنا الواحد.. كذلك إلغاء الأحلاف ، أمر أكثر حتمية.

فالأحلاف، كما تبينا من قبل، إنما يراد بها حماية مصالح خاصة للدول المتحالفة.. كما أنها كالخطايا: تنادى بعضها بعضا .. وبالتالي تمزق أواصر الإخاء والوحدة، بما تشيعه في صفوف العالم من تكتلات متنازعة ..

ومن التناقض الشاذ الذي تنطوى عليه علاقات عالمنا. أن تقوم "هيئة أمم" لها الكلمة العليا كما هو مفروض.. ثم تقوم أحلاف في كل مكان من الأرض بدافع التربص والإعداد للمغامرة البشعة الكبرى! .. لا بد للبشرية أن تحتفل في يوم قريب بحرق جميع وثائق تلك الأحلاف .. من حلف الأطلسي، إلى حلف وارسو ..

وما كان قبلهما، وما جاء بعدهما من أحلاف! .. ولقد أعلن الاتحاد السوفيتي عن استعداده لإلغاء "حلف وارسو" فور إلغاء حلف الأطلسي .. وما ينبغي أن يكون أقطاب الأطلسي أقل حرصا

على السلام.. هذا السلام الذى يتطلب وأد كل
الأحلاف.. وإنهاض حلف واحد وميثاق واحد.. هو
ميثاق الإنسان !.

قد يشق إلغاء الأحلاف على الدول التى تستمد من
الأحلاف طمأنينتها ..

ولكن لتعلم ، بل لتستيقن أنها طمأنينة كاذبة، تلك
التي تنتظرها من سياسة الأحلاف ..

فى يوم "٣٠" أكتوبر عام ١٩٤٣، هَوّت أفئدة الناس
إلى "موسكو" حيث كان "مولوتوف" ممثلاً لروسيا.
و"هل" ممثلاً لأمريكا. و"إيدن" ممثلاً لبريطانيا و"فو" ممثلاً
للصين .. يوقعون وثيقة من الوثائق الطيبة يقولون فيها :
"إن المجتمعين يدركون الضرورة الداعية إلى - هيئة"
"دولية عامة - تعمل على استتباب السلام، والأمن"
"بين الدول"

ولقد قامت بعد هيئة الأمم المتحدة.. فلماذا لم
يصادفها التوقير الواجب، ولماذا لم تحظ بالثقة التى تغنى

عن التماس أحلاف وتكتلات تشلّ عملها، وتضائل من قدرتها ..؟؟

هناك عامل له أهميته، وخطره ، هو المسئول الأول عن هذا ..؟؟

ألا وإنه التفوق داخل الحدود الخاصة، وإرباء الشعور القومي على الحسّ الإنساني؛ والعالمي .. كل دولة تنشد أهدافها الخاصة، وتفكر لنفسها وتشعر بذاتها وحدها ..

وهي بالتالي لا تستطيع أن تقف وحدها لتحقيق أغراضها ..

وعندئذ تلتمس لها حليفا، أو حلفاء ..

أما حين تنشد الدول أهدافا عامة تقوم على المبادئ الإنسانية العامة .. وحين تعيش كل دولة بإحساس إنساني عميم؛ فيومئذ يتأتى لها جميعاً وبصورة تلقائية، توقيير هيئة الأمم، والثقة بها والاعتماد عليها .

إن مغادرة الأنانية، والتفوق على الذاتية، بالنسبة

للشعوب وللحكومات - ضروريان لإقرار سلام صحيح
وبناء إحاء وثيق.

ولابد من أن تقوم الثقافات جميعاً على هذا الأساس
من اليوم ..

ولابد من أن تشيع بكل وسائل التثقيف، والمعرفة
والدعوة، كلمة "إنسان" وكلمة "عالمنا"

عالم بلا أرباب ..

وكل جهد يُبذل لإدراك الخير الإنساني المشترك
مقضى عليه بالحُبوب؛ ما دام على الأرض أرباب
يتمسكون بربوبيتهم ..

هؤلاء الأرباب، الذين ناقشنا وجودهم التاريخي
والسياسي في فصل سابق، والذين رأينا همّتهم العالية!"
في تخريب العالم، وتدمير أمنه عبر التاريخ .

لقد رأينا، كيف كان هناك دائماً في تاريخنا
السياسي "ما يسمى بالدول الكبرى" ..

كانوا مرة "الأربعة الكبار" .. ومرة أخرى "الثلاثة الكبار" ومرة ثالثة "الخمسة الكبار" ..

ومن مؤتمر فيينا .. فى بداية القرن التاسع عشر، إلى أيامنا هذه، وكلمة "كبار" اصطلاح سياسى، يحكى وضعاً "طبقياً" فى العلاقات الدولية للعالم .. وهذا النظام الطبقي فى الأوضاع السياسية، يجب أن ينتهى.

لقد قلنا: إننا لا نتجاهل الفوارق الحضارية بين أمة وأخرى ..

وقلنا: إن هذه الفوارق تجعل بعض الأمم أهمل مكاناً، وأرفع شأناً من غيرها ..

لكن ذلك مختلف اختلافًا تاماً عن التمايز الذى تصوره نظرية "الدول الكبرى" القائمة اليوم . والى قامت بالأمس ..

فالمفهوم السياسى للدول الكبرى، يعنى أن العالم كله تحت وصاية مجموعة من الدول تفوقت صناعياً،

وعسكريا.

وهذا الوضع لا يهدم مبدأ من أسس المبادئ الإنسانية وهو "الديمقراطية" فحسب... بل إنه كان عبر التاريخ من أهم أسباب الاستعمار ، والحرب ..

فجميع المؤتمرات التي شهدتها تاريخنا السياسي منذ هزيمة نابليون إلى اليوم.. كانت مرتعا لأطماع الكبار.. ولو كانت مؤتمرات دولية بالمعنى الصحيح.. أعضاءها الشعوب، لا الحكومات، وغرضها صالح الشعوب ، لا الدول.. لنجت البشرية من آلام كثيرة سببتها "التروات الكبيرة" !..

إن وجود نظام عالمي يسمح بقيام "دول كبرى" و"دول صغرى"، معناه أننا نعيش في مظاهر تقدم خادع موهوم ..

فأى فارق بين "دول كبرى" تحمي من يلوذ بها من الأمم الصغرى اليوم.. وبين أمراء الإقطاع الذين قاموا ليحموا من يلوذ بهم من ضعفاء الناس بالأمس

البعيد...؟؟

إن وضع "الدول الكبرى" يشبه تماما وضع "أمراء الإقطاع" الذين سادوا وسيطروا غداة القرن العاشر الميلادى ..!

فلقد كانت "السلطة العليا" فى أيدى أولئك الأمراء.. تماما - كما أن "السلطة العليا" اليوم فى أيدى الدول الكبرى..

وكان توزيع هذه السلطة، مما يبعث على الريية والمنافسة، وعلى الخوف من فقدانها؛ فتقوم الحروب.. تماما، كما يحدث اليوم فى علاقات الدول الكبرى بعضها ببعض..

وكان المثل القائل "تغذّ به، قبل أن يتعشى بك" هو قانون العلاقات بين الأمراء ..

وهو اليوم نفس القاعدة، فى علاقات الدول الكبرى.. ولولا التقدم العلمى الباهر الذى زلزل نوايا الحرب، وألقى فى أفئدة الدول الكبرى فزعا كبيرا، لكننا

قد شهدنا تبادل الغذاء، والعشاء بينها في صورة فناء
واسع النطاق..!

أفمن أجل هذا، كان جهاد البشرية طوال
القرون..؟

وهل ثمة أمل - أدنى أمل - في كس الاستعمار الوقح
من عالمنا، وهناك دول كبرى، تحمل رواسب الغزو
كلها، ورواسب الضلال كلها..؟؟

أليست المأساة الإنسانية الكبرى التي تُمثل اليوم في
الجزائر، ثمرة إصرار دولة مغرورة على أن تظل إحدى
الدول الكبرى..؟

إن هناك "هيئة أمم" قائمة.. ولها رغم نقاط ضعفها
- كلمة مسموعة، وجهود فعالة.. فهل استطاعت أن
تكفّ الدم المراق في الجزائر عن الجريان..؟

هل استطاعت أن توقف حرباً عدوانية مجرمة.. أجل
مجرمة وأكثر من مجرمة.. هي حرب فرنسا في الجزائر..؟
هل استطاعت أن تحول بين فرنسا، وبين شعب كل

ذنبه أنه يريد أن يعيش كما يعيش سكان أى شارع —
بل أى زقاق فى باريس، أو لندن، أو واشنطن.. أحراراً
آمنين..؟؟

لم تستطع "هيئة الأمم المتحدة" للأسف المرير وقف
تلك الحرب الظالمة...

لماذا..؟ لأن التى تمارسها، "دولة كبرى" وتناصرها
"دول كبرى" أخرى .

كيف تُلغى نظام الدول الكبرى..؟ كيف تُهشم
هذه الربوبية الكاذبة فى الأرض ، وكيف نذروها مع
الريح..؟

هذا ينقلنا إلى النقطة التالية ..

هيئة الأمم المتحدة :

إن هذه المنظمة العالمية، التى شكلناها غداة الحرب
العالمية الثانية والتى استهلت ميثاقها قائلة "نحن العالم" ..
هذه المنظمة ، تُمثل أذكى وأقوم تجاربنا الإنسانية ..

ولكنها كأي مغنم من مغانمنا، ومكسب من مكاسب تقدمنا - مهددة بالتفسخ والاندحار، ما لم نبذل في سبيلها من ذات أنفسنا، كل ما يطلبه بقاؤها، واستمرارها، وتفوقها - من إيثار، وولاء، وتضحية ..

ولقد كانت "هيئة الأمم" تتوقع منا البر، لا العقوق ..

وكانت تنتظر أن نمنحها من الولاء أكثر مما نمنح أممنا، ودولنا، وأنفسنا.

وكان هذا هو الطبيعي؛ لأن الولاء الذي نمنحه إياها، إنما نمنحه في الحقيقة لأنفسنا.. فهئة الأمم هي: نحن .. هي أوطاننا، وحكوماتنا، وشعوبنا.. هي عالمتنا في أرقى مراحل تطوره المائل.

وإن الولاء الإنساني لهئة الأمم، هو الدم الذي يملأ شرايينها بالحياة.. فإذا حرمناها ذلك الدم، فأنى لها البقاء؟

لنتصور دافعي الضرائب في أية دولة، امتنعوا عن دفعها، ولنتصور مواطني هذه الدولة، وقد تكتلوا جميعاً

في حركة تمرد ظافر ضد دولتهم.. أتستطيع هذه الدولة أن تمارس حقوق سيادتها ..؟

إن جميع الأمم، وجميع الحكومات والدول، مواطنون في نطاق هذه المنظمة العالمية.. وإن أي تمرد ترتكبه حكومة أو دولة في عالمنا كله، يُعطل الهيئة عن ممارسة سيادتها، وعن أداء رسالتها.

إذن، فطبيعة العلاقات بين المواطنين في أمة، وبين دولتهم كاملة الشبه والتماثل، بطبيعة العلاقات بين الأمم كلها، وهيئة الأمم التي تمثل دولتهم العليا .. وهذا يقودنا إلى التنبيه على مسألة هامة .

فطبيعة العلاقات بين الناس ودولتهم تقوم على الثقة المتبادلة.. وهذه الثقة لا تباع، فتُشترى.. إنما هي ثمرة قيام كل بواجبه.. وأول واجبات الدولة تحقيق التكافؤ والمساواة، والعدل بين مواطنيها جميعاً..

وحين يختل هذا الميزان في يدها. وتضطرب مصائر الناس بين يديها، تبدأ متاعبها، ويهبّ المواطنون لقلبها

والتخلص منها.. وحتى إذا لم يستطيعوا ذلك، نجددهم
يعاملونها بغير اكتراث وبغير احترام ..

وهذا هو الذى يحدث تماما بالنسبة للعلاقات بين
الأمم، وهيئة الأمم ..

فالعلاقات بينهما، يجب أن تقوم على ثقة متبادلة،
تثمرها صيانة الهيئة لجميع حقوق مواطنيها الذين هم،
أمم العالم وشعوبه..

فإذا أخلّت الهيئة بواجبها حيال هذه الحقوق، فإن
التمرد عليها واقع لا مفر منه.. وعدم الاكتراث بها
يصير أمرا محتوما..

وهذا هو الذى حدث لـ "عصبة الأمم" فأودى بها
وجعلها أهدوثة ومثلا..

ولكن، ما هى الاعتبارات التى يمكن أن تصدّ "هيئة
الأمم" عن رعاية مواطنيها ..؟

أهى الأنانية، ورعاية المصلحة القومية الخاصة ..؟

إن هيئة الأمم ليست مؤسسة قومية.. بل عالمية..

وأعضاؤها، شعوب العالم، فالإحساس هنا عالمي لا قومي.. أو هذا على الأقل ما يجب أن يكون ..
 إذن، فالقوى التي تحمل الهيئة على التخلّص عن
 التزاماتها لن تكون إلا دخيلة عليها، وإنها لكذلك
 فعلا.

وهذه القوى، هي التي سردناها من قبل :
 • رأس المال، الذي يعمل اليوم في نشاط جماعي
 عالمي..

• الأحلاف التي تقوم على تقسيم العالم .
 • السيادة والنفوذ القوميّين، اللذين تفرضهما دول
 كبرى.

والعلاج بعد هذا يسير إذا أرادت البشرية، وإذا
 هبّت لتحقيق ماتريد.

العلاج - أن نعزل القوى الثلاث السالفة عن مراكز
 وثوبها.. وأن نضعها جميعا في يد هيئة الأمم.

إن الحديث عن حكومة عالمية واحدة، لم يعد خرافة

ولا وهما والحكومة العالمية، مقبلة لاريب فيها، مثلما أن
ضُحَى الغد مُقبل وآت ..

وليس معنى عدم توافر الظروف التي تسمح اليوم
بقيام هذه الحكومة - أن نكف عن السعى المشترك لتهيئة
تلك الظروف .

فإذا أردنا - ولا خيار لنا في ألا نريد - فأمامنا الآن
أعظم الفرص التي تفضى بنا إليها.. ألا وهي دعم هيئة
الأمم.. وطننا الأكبر، وملاذنا الأخير ..

ونحن من جانبنا نرى أنه لا بد من أن ننقل إلى
اختصاص الهيئة هذه القوى الثلاث :

- السياسة الخارجية ..
- العلاقات الاقتصادية ..
- العلاقات العلمية، والثقافية ..

أما السياسة الخارجية، فلا بد من التنازل عنها لهيئة
الأمم تنازلاً كلياً. ونقل اختصاصات وزارات الخارجية
في العالم كله إليها .

وذلك يقتضى إلغاء وزارات الخارجية، أو تحويلها إلى وزارات تنفيذية لا غير..

إن التضارب بين السياسات الخارجية للدول، وما تعتمد عليه من مناورات ومؤامرات، يقف وراء كل كارثة تترل بالناس.. ولا بد لهذا، أن تكون للعالم سياسة واحدة تقوم على تنسيق أوضاعه وتحرى سلامته ..

أما "العلاقات الاقتصادية" فيكون إشراف الهيئة عليها إشراف الحَكَم في مباراة نظيفة.. فهو يرصد نتائجها في أمانة، ويمنع اللاعبين في كلا الفريقين من خرق النظام الموضوع ..

وإشراف الهيئة على الاقتصاد الرأسمالي، سيعنى زجره عن الاحتكارات الضارة. وعن الاستعمار جرياً وراء الأسواق أو المواد الخام.. كما يعنى تنسيق علاقاته الداخلية بحيث لاينجم عنه ظلم واستغلال .

وإشرافها على الاقتصاد الشيوعى، يعنى إعطاءه بوصفه نظاماً جديداً فرصة التجربة ويعنى زجره عن كل

كبت وإرهاق.. وإشرافها عليهما معاً على النحو المذكور لن يعنى إلغاء أحدهما، بل يعنى إلغاء ظروف التصادم بينهما.. ويعنى تمكين قانون الاختيار التاريخى من الأخذ بأصلحهما .

أما العلاقات العلمية والثقافية، فينبغى أن يكون إشراف الهيئة عليها أكثر من العلاقات الاقتصادية، لأنها لاتحمل الحساسية التى تحملها الأولى .

ينبغى أن يكون إشراف الهيئة عليها كلياً - مثل السياسة الخارجية تماماً.. مع إتاحة الفرصة لكل الأفكار لكى تخاطب الناس.. وإتاحة الفرصة للناس، كى يعرفوا كل سبب علمى، حتى تصبح المعرفة عوناً لنا على التقدم.. لاسلحاً جديداً من أسلحة التفوق الأنانى والغلبة الذاتية للمذهبين الاقتصاديين السائدين - الرأسمالية، والاشتركية ..

وهذا الإشراف الذى ننادى به، يُمثل سبباً ونتيجة فى نفس الوقت .

هو "سبب" لأنه سيعجل بظروف الإخاء البشري
ويجعل من السلام حقيقة وواقعاً ومستقبلاً .
وهو "نتيجة" بمعنى أنه لا بد أن تسبقه مقدمات
تضمن سلامته، وتؤمن حياة البشرية في ظله . والسبب
والنتيجة هنا يندمجان ويتفاعلان بإشراف هيئة الأمم على
السياسة الخارجية لدول العالم، وعلى النشاط الاقتصادي
والثقافي رهن بعزل نفوذ الدول الكبرى بادئ بدء عن
الهيئة .. وهو في نفس الوقت الطريق الوحيد، لعزل هذا
النفوذ عنها ..

وإذا، اتحدت النتيجة والسبب في أمر ما على هذا
النحو؛ فقد بلغ هذا الأمر من الضرورة الحدّ الذي يجعل
التخلّي عنه سفاهة وانتحارا .

أما كيف ننقل اختصاص دول العالم في السياسة،
وفي الاقتصاد وفي الثقافة إلى هيئة الأمم، فيمكن أن ينظم
ذلك لجان من الخبراء والعارفين .

قد يقال: إن في هيئة الأمم شُعباً، للاقتصاد، وللثقافة

وغيرهما، ولكن الوضع مختلف كل الاختلاف عما ننادى به..

إننا نريد ألا تكون لأية دولة سيادة على سياساتها الخارجية.

ونريد أن تخضع خططنا الثقافية، لإشراف عالمي؛ لأن تنوع الأهواء والمصالح المناطة بالسياسة وبالاقتصاد وبالثقافة هو الذى يخلق التصادم والتراع .

ولنلاحظ جيداً - أننا نقول "تنوع الأهواء والمصالح" فالثقافة مثلا ستظل محتفظة بتنوعها. بعد أن ينفى إشراف الهيئة عليها الضراوة وأغراض الدعاية ..

وفي التنظيم الداخلى لهذا الإشراف سُراعى - مؤقتاً - جميع الفروق الطبيعية القائمة.. وسيظل مجال التنافس المشروع قائما بين النظم الاقتصادية والاتجاهات الثقافية.

وكل ما هناك أن هذا التنافس سيقوم يومئذ لاعلى أساس من أغراض الدولة، ومآربها الخاصة.. وإنما على أساس الأهلية الذاتية والموهبة الحقيقية لكل من النظم

الاقتصادية، والاتجاهات الثقافية..

نحن نعلم أن التطور الداخلى لكل أمة من الأمم،
ضرورى لبناء عالم جديد عظيم.

ولكننا نعلم كذلك أن هذا التطور الداخلى، ينبغى
أن يسير وفق مبادئ إنسانية كبرى وشاملة، مادمنّا
صائرين إلى عالم واحد فعلا.

وإذا ما اجتازت "هيئة الأمم" هذه التجربة بنجاح
وتوفيق، فإن الطريق يومئذ، سينفسح أمامها، فتشرف
على القانون حتى توحد، وعلى البوليس، حتى يعيـش
الناس داخل بلادهم فى أمن أكثر، وطمأنينة أوفى .

وعلى العالم ألا ينخدع بمحاولات التجمع التى تقوم
الآن، زاعمة أنها طريق إلى تجمع أوسع ينتظم
البشرية كلها، وزاعمة أنها تتم وفق ميثاق الأمم
المتحدة.. فما أكثر ما ينطوى عليه هذا الزعم من كذب.
وأمامنا مثل واضح، هو: "السوق الأوروبية"..

لقد كان من الممكن أن تكون هذه السوق محاولة طيبة، ونموذجاً لما ندعو إليه.. لكن لأنها تمت لحساب مصالح إقليمية لاعلمية، فقد باءت بكثير من الأوزار.

إن هذه السوق لم تقم لتقريب شقة الخلاف بين جهود اقتصادية مسالمة بريئة، تريد أن تعيش، وتدع غيرها يعيش.. بل قامت لحماية مصالح دول توشك على الضياع، ويوشك نفوذها الاستعماري على الاندحار..

ففي المعاهدة المبرمة بين الدول الأوروبية المشتركة في هذه السوق، عزم على "نشر سياسة الاستعمار العامة في السوق، سيما المناطق المتخلفة اقتصادياً في شمال أفريقيا وبقية مستعمرات الدول الأعضاء" ..!

ما علاقة شمال أفريقيا بأوروبا ..؟

إنه الاستعمار ينادى بعضه بعضاً، ويشد بعضه أزر بعض ليواصل القدرة على بسط نفوذه.

فهذه السوق إذن، تهدف إلى الاحتفاظ بمستعمرات الدول المشتركة فيها، وبعد أن أوشكت على الإفلات

منها.

ولعل أوضح برهان على هذا تخصيص الدول
المشتركة في السوق مبلغ "١٨١" مليونا من الدولارات
لاستثمارها في مستعمراتها خلال المرحلة الأولى من
مراحل الاستثمار ومدتها خمس سنوات.
وقد قامت بتوزيع الملايين المذكورة على مستعمرات
فرنسا وإيطاليا، وبلجيكا، وهولندا ..

هناك تجمّع واحد لاغير، هو الذى يضمن سلامتنا -
ذلكم هو تجمع البشرية كلها، من أجل أهدافها مجتمعة،
ومن أجل مستقبلها موحّدا ..
أما تلك الجيوب التى تقام فى أرجاء عالمنا، متنافرة
متنازعة فهى عامل تمزق وتصدع.. أكثر مما هى عامل
توحيد وتجمع..

والتسويات الخاصة، مصدر قلق دائم.. ولا بد من
تسوية عامة لكل المشاكل الرئيسية فى عالمنا.. وليس أحد

بقادر على مثل هذه التسوية سوى هيئة الأمم حين تتمتع
بسلطانها المشروع كاملاً.

عند ما قام التناؤش بين الصين والهند، أثناء زيارة
"خروشوف" لأمريكا - تفاعلت بهذا التناؤش كثيراً..

وقلت لنفسى: لقد جاءت هذه الحركة فى أوانها
- لنعلم تماماً أن الخلاف بين أمريكا، وروسيا - ليس
وحده مصدر الخطر لعالمنا.. وإنما هناك مواطن خلاف
أخرى وكثيرة، يمكن أن تجيء منها أخطار أكيدة.. بل
ويمكن أن تسبب حرباً ودماراً..

من أجل هذا؛ فمواطن الخلاف والتراع جميعها،
يجب أن تُواجه وتعالج .

وذلك يقتضى أن تعيش "هيئة الأمم" أياماً تاريخية
كبيرة تنجز فيها مايلى :

- إبطال كافة الأوضاع الاستعمارية، وتحرير جميع
الأمم .. والجزر، والقواعد من مستعمراتها .
- إرجاع جميع الحقوق المغتصبة إلى أهلها، ويبدأ

هذا بأهل فلسطين.

- تصحيح الوضع الدولي لكل الأمم، ويبدأ هذا التصحيح بفتح أبواب الهيئة لستمائة مليون صيني !.
- إلغاء جميع الأحلاف القائمة، وتحريم قيام أحلاف جديدة.

- تعديل ميثاق الأمم المتحدة، ومجلس الأمن تعديلا ينفى كل احتمال للتأثير على هاتين المنظمتين .
- تنظيم عمليات الإشراف الفعلى، والتام على السياسة الخارجية لكل الدول وكذلك الثقافة الإنسانية، ثم الاقتصاد العالمى، تنظيما لايبنى دمج نُظْمه فى اتجاه واحد.. وإنما يعنى تنسيق جهودها الحرّة تنسيقا يكفل إبعادها عن الشحناء، وإكسابها قوة أكثر ، للعمل من أجل الإنسان.

- حراسة المبادئ الرشيدة التى ينبغى أن يسير التطور الداخلى للأمم، والتطور العام للإنسانية وفقها. وعلى رأسها الاحترام المطلق للحرية الإنسانية، والاستجابة

التامة لكل مطالب المصير الإنساني .

وبعد.. فقد قلنا كلمات نحسبها مجدية .. وناديننا
بأمور، الحاجة إليها بالغة .

وأكاد أبصر القارئ، وهو يتملل متسائلا: ونزع
السلاح لماذا لم تحدثنا عن نزع السلاح ..؟؟!
وللقارئ العزيز أقول: لقد نزعنا السلاح فعلا بما
قدمنا من مقترحات، حتى لو لم يرد فيها ذكر - أي ذكر
- لنزع السلاح!

فالأسلحة، إنما تُصنع، وتشرع من أجل المآرب
الخاصة للدول.. فإذا حولنا هذه المآرب الذاتية. إلى
مآرب إنسانية؛ فقد التسلح كل مبرراته ومُسوغاته ..
إن تطهير المصَّب لا يُجدي فتيلًا، مادام المنبع نفسه
يعج بالأقذار

وأذكي وسيلة لتطهير المصب، هي تطهير المنبع
أولا..

وقوى السياسة، والمال، والمعرفة - هي المنابع التي
يبدأ بتطهيرها وتطويعها لأغراض التقدم الإنساني، عملنا
وكفاحنا .

وهذا لا يمنع أبدا مضاعفة الجهود التي تُبذل اليوم
لتحريم الأسلحة، وتسريح الحيوش .

إن تبعات الرشد تناديننا إلى واجبات قد تكون
شاقة.. بل هي شاقة فعلا.. ولكن لنذكر أن هذه المشقة
تنطوي على أعظم فرصة متاحة لنا..
ولنذكر أيضا، أنه إذا كنا نريد الحياة للجميع؛
فسبيل هذا أن يصير العالم للجميع .

تنادى بالمبادئ الإنسانية السامية.. ونبصر ساسة يتخذون
مواقف، ظاهرها السمو، والبطولة الإنسانية، والجلال؛ ثم
هي منطوية على نقيضها تماما..

كما نبصر مواقف يتّسم ظاهرها بالإخلاص لحقوق
الإنسان وهي في حقيقتها مؤامرة محبوكة وخبیثة لقمع

هذه الحقوق وتضليل مسعاهها..

إن المبادئ التي يمكن أن تُصاغ منها سياسة صالحة،
هي الجديرة اليوم بالسيادة، والذويوع، حتى يمكن الظفر
بضمير سياسي جديد يتوخى المبدأ، لا المنفعة.. ويحترم
الحق، لا الباطل.. ويعمل في خدمة البشرية مجتمعة. لا في
خدمة قطاعات متنافرة.. وإقليميات متناحرة..



كتب المؤلف

- ١- من هنا نبدأ
٢- مواطنون .. لا رعايا
٣- الديمقراطية، أبدا
٤- الدين للشعب
٥- هذا .. أو الطوفان
٦- لكى لا تحرثوا فى البحر
٧- لله والحرية. (ثلاثة أجزاء) ٨- معا على الطريق محمد والمسيح
٩- إنه الإنسان
١٠- أفكار فى القمة
١١- نحن البشر
١٢- إنسانيات محمد
١٣- الوصايا العشر
١٤- بين يدي عمر
١٥- فى البدء كان الكلمة
١٦- كما تحدث القرآن
١٧- وجاء أبو بكر
١٨- مع الضمير الإنسانى فى
مسيره ومصيره
١٩- كما تحدث الرسول (مجلد)
٢٠- أزمة الحرية فى عالمنا
٢١- رجال حول الرسول (مجلد)
٢٢- فى رحاب على
٢٣- وداعا عثمان
٢٤- أبناء الرسول فى كربلاء
٢٥- معجزة الإسلام عمر بن عبد العزيز ٢٦- عشرة أيام فى حياة
الرسول
٢٧- .. والموعود الله
٢٨- خلفاء الرسول (مجلد)
٢٩- الدولة فى الإسلام
٣٠- دفاع عن الديمقراطية
٣١- قصتى مع الحياة
٣٢- لو شهدت حوارهم لقلت
٣٣- الإسلام ينادى البشر
٣٤- إلى كلمة سواء (تحت الطبع)
٣٥- قصتى مع التصوف

رقم الإيداع ٢٠٠٤/١٣٧٥٠

الترقيم الدولي I.S.B.N

977-5732-37-9

مَخْرُجُ الْبَشَرِ

فاصل

قال مؤلفه:

"هذه الصفحات، ثمرة خواطر
مُباركة.. أفاءت عليها المحبة..
وتنحى عنها الغرض.. وتلقّت من
الماضى درسه.. وحَمَلها إلى
المستقبل شوق حميم، ورجاء
مُشابِر..

وكاتب هذا الكتاب يؤمن أن
العالمَ قَرِبتُه.. والبشريةَ أَسْرَتُه..
ولقد هداه إيمانه هذا إلى إدراك
أنَّ على رأس واجبات الإنسان
الذى أذن الله له أن يُفكّر، ويكتب
- واجباً جليلاً بقدر ما هو محتوم..
واجباً يدعو إلى الاهتمام
بمشاكل العالم، كما لو كانت
مشاكله هو.. وإلى التفكير فيها،
والتعبير عنها بنفس الحرارة
والولاء اللذين يتناول بهما
مشاكل وطنه، وذاته ..

جناز محمد حنا

الهقمة
للنشر والتوزيع

٥٠ شارع الشيخ ریحان - عابدين - القاهرة
تليفون : ٧٩٥٨٢١٥ - ٧٩٤٦١٠٩ - فاكس : ٥٠٨٢٢٣٣